قضبان من زجاج
قضبان من زجاج
تجربة إنسانية شاقة تمر بها أسرتان مصريتان أجتمعت عليهما الغربة وأزمة وباء كرونا . بين مصر والكويت وبين الحب والخيانة وبين الصبر والألم تمر ثمانية أشهر قاسية وطويلة حملت في طياتها الكثيرمن الدروس .....
رواية
د. أماني عبد السلام
دار نشر رقمنة الكتاب العربي-
Stockholm
ISBN 978-91-89288-07-2

قضبان من زجاج

A PRISON OF GLASS

رواية بقلم

د. أماني عبد السلام

الكتاب: قضبان من زجاج
المؤلف: د. أماني عبدالسلام
الطبعة الأولى 2021
ISBN: 978-91-89288-07-2
الإيداع القانوني لدى المكتبة الملكية السويدية: 32-16 2021-01-06
الناشر: رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم
السويد، فاستراء جوتالند
هاتف: 0046790185518
البريد الإلكتروني:
digitizethearabicbook.com

جميع الحقوق محفوظة لدى دار نشر رقمنة الكتاب العربي- ستوكهولم، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى

فبراير ٢٠٢٠

قبل رأسها قبلة طويلة.. نظر لها وقد امتلأت عيونها بدمعة كبيرة.

قال : عاوزك قوية زي ما عودتيني !

قالت : إن شاء الله .. متخافش .

قال: إن شاء الله هنتجمع تاني قريب .

قالت : خلي بالك من نفسك .

جذب حقيبته ولوّح لها مودعاً ، يعبر بوابة المطار .

**

صالح محمد عطية

مدرس مصري في الخامسة والأربعين من العم، يعمل بالكويت منذ أربعة عشر عاماً تقريباً. قمحيٌّ طويل ممتليء قليلاً، ورأسه قليل الشعر ينبئ – كما يقول – عن نسب عالية من هرمونات الذكورة، بالإضافة لعدد لا بأس به من العوامل الوراثية.

دخل صالح إلى مطار الكويت الدولي دخول الواثق الذي سافر عشرات المرات. أنهى إجراءاته واتجه لمكان الانتظار ليصعد للطائرة المتجهة إلى القاهرة.

استعاد شجونه عندما فرغت يداه مما يشغلها، وفرغت عيناه من زوجه وأولاده. والدته التسعينية مريضة في إحدى قرى الشرقية.

في كل مرة كان يغادر مصر إلى الكويت ويقبل يدها كانت تقول : "يا عالم يابني هعيش لغاية اما أشوفك تاني؟"

صالح قلق جداً هذه المرة، خاصة أن والدته بنفسها هي التي طلبت رؤيته. عنقود من خمسة رجال و ثلاث نساء هم إخوته لم يغنوها عن وجوده هو ..آخر العنقود. ابتسم ابتسامة حزينة و هو يتذكر صغره. لقد أنجبته في آخر عهدها بالإنجاب. و رغم عتاب القريب والبعيد كان صالح هو قرة عينها ، وكأنه كان إثباتاً لفتوة أبيه و لاستمرار شبابها.

اسمها "دام العز"، اسم نادر من بقايا ثلاثينات القرن الماضي. تدثر الاسم تحت كنيتها لسنوات طويلة فلم تعد تُعرف إلا بـ" أم عطية" ، وكان صالح يداعبها به من وقت لآخر. اسمها يشعره بالدفء والحب الذي دوماً كان بينهما وهي تحاول تعويضه عن

شبابها، وعن عز أبيه الذي فاته مبكراً. يتذكر بجلده لمسة يدها المتجعدة المخشوشنة كأرض تفوح بالخصوبة.

ارتفع النداء مطالباً المسافرين بالتوجه للطائرة.

**

أحمد عبد الله

يتجه إلى صالة انتظار الطائرة المتجهة إلى الكويت وهو يتحسس جيوبه وينظر في حقيبة يده مراراً ليتأكد من وجود أوراقه الكثيرة.

هو طبيب مصري في الثالثة والثلاثين من العمر. شاب نحيل حليق به بقايا من الوسامة أخفتها بعض التجاعيد الضئيلة المبكرة حول عينيه مع تجاعيد التوتر التي سيطرت على جبينه. شعره تراجع قليلاً معلناً – مع نظارته - معاناة مطولةً مع الكتب الضخمة ونوبتجيات المستشفى.

هذه هي المرة الأولى التي يغادر فيها مصر على الإطلاق؛ ليبدأ العمل في واحدة من المستشفيات الخاصة بالكويت.

مكافحٌ له زوجة طبيبة أيضاً. يحاولان معاً أن يبدوا كالأطباء، و أن يدخلا صغيرهما للمدارس الجيدة كالأطباء، وأن يأتي آخر الشهر وثلاجتهما بها طعام كاف.. كالأطباء .ولكن الظهور كالأطباء تطلب عملاً مضاعفاً؛ لأن راتبه ليس كافياً ليعيش كالأطباء.

أحمد طبيب الأطفال كان يعمل على مدار الساعة تقريباً. ينتهي من نوبتجية المستشفى، يتجه إلى المركز الطبي الخاص الذي يلتهم نصف ما يكسبه يومياً، وقد يمر على طبيب أو أكثر من أطباء التوليد للاطمئنان على صحة الصغار الذين أقبلوا إلى الحياة مؤخراً.

يعود للبيت يرى زوجته أخيراً وقد نامت. تنهض لتعد له وجبة بعد اليوم القاتل. يأكل وهي تنظر له بإشفاق ثم يتسند إلى أن يصل لفراشه. يقبل صغيره الذي أكمل العام، ويزيحه للداخل قليلا. يسأل بصوت نعس عن ابنه الأكبر ذي الأربعة أعوام، ثم ينام قبل أن يسمع الإجابة. و يستيقظ في الصباح ليستكمل الركض حول الساعة.

وجد أخيراً فرصة للسفر إلى الكويت. عمل لمدة ثماني ساعات فقط بمرتب يزيد على ما يكسبه في عام كامل.

والده هو الشيخ عبد الله السيد، إمام مسجد و خطيب. والدته توفيت منذ سنوات قليلة تاركة حياته يابسة مجدبة، فقد كانت الأكثر رقة في هذه العائلة المزدحمة بالرجال الشداد و النساء الماكرات.

الشيخ عبد الله رجل تخطى السبعين من العمر له لحية كالحليب تصل إلى صدره، ونظارة سميكة أمام عينيه. قصت الشيخوخة من عموده الفقري فبدا أقل طولاً وأكثر انحناء. هو حامل للقرآن، يابس الرأس، أخذ من القرآن -رفيق العمر- حزمه و قوته في الحق، ولم يتمكن للأسف من اقتباس الكثير من لينه و رفقه.

للشيخ عبد الله أربعة أبناء أكبرهم عصام ، و هو مهندس في الأربعينات من عمره . وأصغرهم هو بطل قصتنا. بينهما أخ و أخت ورثا شدة أبيهما بدون أي تقصير.

أحمد يجلس في أول مقعد بجوار بوابة الدخول إلى صالة الركاب في توتر يراجع أوراقه للمرة العشرين. لقد تكلف مبلغاً ضخماً ليحصل على هذه التأشيرة. مكاتب السفريات تنضم لفريق الكلاب الجائعة التي تنهش كل من يحاول الهرب من ضيق الرزق. لقد استدان من أسرته و أسرة زوجته ليستكمل المبلغ المطلوب حتى يصل إلى هذه النقطة ، إلى صالة الركاب رقم ٢ بمطار القاهرة. لا يشعر بفارق كبير بينه وبين من ركب مركباً خرباً يهرب به إلى

إيطاليا. يلقي بنفسه للمجهول على أمل أن يرفع رأسه و يتنفس الهواء أخيراً بعد سنوات من الاختناق.

**

سمية

زوجة صالح وأم العيال. ثلاثة من الأبناء أكبرهم في الرابعة عشرة وأصغرهم سنه ست سنوات. سمية في الخامسة والثلاثين من عمرها، سمراء بها جمال ريفي، نحيلة نوعاً ما، وطويلة نوعاً ما. لولا الدين لاتخذت أيقونة للجمال المصري.

أنهت دراسة الدبلوم و تزوجت صالح فوراً ، وكان ذلك منذ خمس عشرة سنة تقريباً. سافر للكويت وتركها عاماً في مصر مع أكبر ابنائهما، ثم التحقا به وأكملا كفاحهما معاً ، كل منهما هو وطن الآخر وجميع أهله. لم يفترقا منذ ذلك الحين. يسافران مصر معاً ويعودان معاً. عملت في بداية حياتهما في الكويت بأماكن متفرقة، حتى إذا استقرت أمورهما و ادخرا ما يمكن أن يضمن حياة آمنة، طالبها زوجها بالاهتمام بالبيت والأولاد بينما هو يعمل بالمدرسة صباحاً إضافة للدروس الخاصة مساء.

قادت السيارة عائدة من مطار الكويت إلى شقتهما في حي السالمية . اليوم هو الجمعة وفضل عدم إيقاظ الصغار. منذ أخبروا زوجها أن والدته مريضة و تصر على رؤيته وهو يتوقع ما سيحدث. لن تطول غيبته غالباً و سيعود قريباً.

سمية هي الإبنة الوحيدة لأمها زينب. العجوز السبعينية التي تقطن بشقة متواضعة من شقق الإيجار القديم بشارع الصاغة بمدينة الزقازيق. تزوجها صالح وقد توفى أبوها فكانت في نظر أسرته زوجة مستكينة ستخدم بيت العائلة دون تذمر. فبادر صالح

بقرار الانتقال للكويت لينقذها من المزيد من المآسي، و في الكويت تعلما الحب و الصبر معاً بعيداً عن تدخلات العائلة التي كانت تثقب حياتهما. في الكويت أصبح صالح هو زوجها و أباها و حبيب العمر.

أدارت سمية المفتاح في الباب ودخلت مستوحشة . لن تجد ملابس صالح ملقاة على مقعد فتصيح أنها ملت من الفوضى ، ولن تشم دخان سجائره فتلقي في وجهه خطبتها اليومية عن أهمية توقفه عن التدخين من أجل صحته وصحة أولاده. جلست على الكنبة الرمادية في الصالة جيدة الأثاث. تتأمل التليفزيون الحديث الذي يملأ الحائط ، و السفرة ذات الستة مقاعد، التي كان دوما يطلب من زوجه الإتيان بالطفل الرابع لألا يترك هذا المقعد خالياً فتضحك وتقول " يا عجوز!! الكرسي السادس دا لمرات ابنك اللي بقى طولك".

**

شيماء

طبيبة ثلاثينية هي زوجة أحمد وأم ولديه. جميلة الملامح ذات عينين بنيتين تغطيهما أحياناً بعدسات رمادية. تغطي شعرها البني المائل للأشقر بحجاب أنيق. صغيرة الجسم لا يصدق من يراها انها أمٌ لطفلين هما زياد ذو الأربع سنوات و مهند ذو العام و بضعة أشهر

شيماء هي الابنة الكبرى المدللة للحاج حسن حامد. موظف بالمعاش منذ سنتين أو ثلاثاً . وجهه أبيض مشرب بحمرة و شعيراته الباقية تشي بشاب كان يميل للشقرة منذ ثلاثين سنة. هو، ككل الرجال المصريين بالمعاش، ضيق الصدر ، ذهب عصر تحمله للفوضى . يعشق حفيديه الصغيرين، ولكنه لا يتحمل فوضاهم أكثر

من ستين دقيقة. أم شيماء هي نادية ،امرأة بيضاء جميلة، أنهك جمالها السن، والتوتر، ووسواس الامتياز المرهق. معلمة بهتت وظيفتها على شخصيتها فأصبحت كثيرة النقد، وغير متسامحة مع الأخطاء. تعشق فتاتيها الجميلتين شيماء، وشروق الطالبة بالثانوية ، والتي ينطبق اسمها على شكلها بشعرها المائل للشقرة، وبشرتها البيضاء الجميلة.

أحمد هو حب شيماء الأول والأخير، حيث التقيا في الكلية و هو الذي يكبرها بعامين. عاشا قصة حب ملحمية انتهت بالزواج بعد تخرجه ببضعة سنوات، بمساعدة الآباء طبعاً

أقول انتهت؛ لأن زوجها منذ ذلك الحين دخل مفرمة الحياة ولم يخرج منها. هي أيضاً دخلت مفرمة الأمومة ، وصار كل منهما يدور في فلكه بعيداً عن الآخر. يتقاطعان ربما في يوم إجازة؛ فيكتشفان في كل مرة أن شغفهما ينقص، وأن عالميهما يتباعدان شيئاً فشيئا.

حب الأطفال هو ما بقى. خشيت لوهلة أن يسرق مرضاه حبه لأطفاله ، ولكن هذا لم يحدث. أصبحت سعادتها الوحيدة حين تراه يعوضهما عن غيابه في السويعات التي يلتقيهما فيها بالكثير من الضحك والأحضان. ذكريات حبهما في حرم الكلية وفي فترة الخطبة تؤلمها. بعد قليل أغلقت قلبها على كل الماضي، وأقلمت نفسها على الاكتفاء بحب طفليها وحسب.

تعيش شيماء في شقة الزوجية بالقرب من الوحدة الصحية التي تعمل بها. تحب شيماء الرقي والأناقة في كل شيء. في شقتها، وفي ثيابها وثياب الصغار، وكان هذا مجهداً لميزانية طبيبين شابين في مصر.

فكرت شيماء عندما أخبرها أحمد بفرصة العمل في الكويت أن هذا أفضل كثيراً من الساقية التي يدور فيها مُغمم العينين طوال اليوم. لا فارق بين غربته في مصر وغربته في الكويت. ثم لن تبرح أن تلتحق به والولدان فتتحسن الظروف.

وافقت بحماس، وظل حماسها متقداً حتى تم إرسال تأشيرة دخول دولة الكويت. نظرت لها برعب وكأنها شهادة وفاته. وفجأة انفجرت بالبكاء حتى فزع ابنهما الأكبر و ركض يتمسك بساق أمه ويبكي هو الآخر. تمنت حينها أن لو كانت ميتة قبل أن تشجعه على السفر. حينها ضمها لصدره لأول مرة ربما منذ وقت طويل .

**

جلس صالح واجماً في المقعد الأمامي للسيارة البيجو التي حملته وحملت حقيبته، واثنين من إخوته الرجال متجهة إلى قرية (بني قريش) في ضواحي مدينة الزقازيق. صامت لا يجد ما يملأ به فراغ السيارة سوى دخان سجائره. سكوت إخوته يعني أن الحالة سيئة للغاية.

لم يكن يتوقع أن يعود ليجد السيدة ذات التسعين تشمر كميها وتلِتُّ العجين في الماجور، ورغم ذلك لا يزال لديه أمل أن تعيش بضع سنوات أخر، وربما تكمل المائة عام، فقد فعلتها امرأة قبلها في القرية وعاشت إلى المائة و أربعة.

بدأت السيارة تخوض تخوم محافظة الشرقية، وبدأت الأرض المزروعة تنبسط إلى الآفاق. مشتاقٌ إلى الأخضر، ذلك الفلاح القُح الذي يربض داخله. لم يشبع منه، ولم يشبع من أمه " دام العز" التي دامت له إلى أن وصلت التسعين. كم يكفي منهما ليشبع؟!

وصلت السيارةُ أخيراً بعد سفر مرهق إلى تلك القرية المختفية، كحبة في وسط حبات المسبحة. أوقفوا السيارة في باحة المنزل الريفي بين حظيرة الحيوانات التي "كانت" عامرة إلى اليسار، وبين الدار الكبيرة إلى اليمين.

خرج صالح مسرعاً من السيارة، ودخل البيت ثم إلى غرفتها الواقعة على يسار الردهة. "دام العز" كانت قد نحلت لدرجة أنها لم يظهر لها بدن يرفع الغطاء. أسرع نحوها يقبل يدها ورأسها. كانت تتنفس، لا تزال، ولكنها ليست واعية. رحبت به زوجات إخوته وهن يخفين دموعهن.

جلس جوار أمه وسأل أخاه الواقف عند باب الغرفة في أسى:

- هي كدة من امتى ؟

أجاب أخوه بأسف:

- قطعت الزاد من أسبوع، ومن ساعتها بنعلق لها محاليل. ساعات تنده علينا وترجع في الغيبوبة. وآخر مرة فضلت تقول انا عاوزة صالح، وماردیتش علينا تاني.
- ماوديتوهاش المستشفى ليه ؟
- وديناها .. قالوا مفيهاش حاجة. انت عارف اللي فيها يا ابو محمد.

عاد صالح يمسح على وجه أمه المتغضن و جعل ينادي بصوت خفيض :

- انا صالح يامّا.. انا جيت اهو.. يا مّا ردي عليا

دعاه أخوه لتناول شيء من الطعام ولكنه رفض فتركوه معها. أجال عينيه في السرير الخشبي العتيق، وقد أُسدلت عليه ناموسية

وردية اللون تدلت عن بعض جوانبه. اجتاحته ذكريات الطفولة اجتياحاً لا رحمةَ فيه.

شعر قبضتها تضغط على كفه بوهن وصوتها ينادي عليه. ضحك وهو يمسح دموعه وقال :

- ايوة يامّا ..انا جيت

قالت و كأن شيئاً لم يصبها:

- حمد الله على سلامتك يا ابني.

أخذ يقبل جبينها ووجنتيها وكفيها. قالت الأم :

- بطل عايط .. انت هتعمل زي العيال؟
- وحشتيني يامّا!

ابتسمت في وهن، وسالت الدموع على خديها وهي تقبض على يده. كان إخوته قد سمعوا حديثهما فأقبلوا يهللون وأصوات السعادة تملأ البيت. كانوا جميعاً يعلمون أن هذه هي بداية النهاية، ولكنهم كتموا ذلك عن أنفسهم وكأنهم اتفقوا على ذلك.

طلبت أم عطية طعاماً لأول مرة منذ أسبوع، فأحضرت لها واحدة من بناتها الطعام. ازدحمت الغرفة بالأبناء التسعة عن آخرها. بعد قليل من اللقيمات، وكثير من الإلحاح من بناتها، طلبت أن يتركوها في الغرفة مع صالح. جعلت تسأله عن أولاده و زوجه. تبادلا حديث الأشواق بين الأم وآخر العنقود لبعض الوقت، ثم قالت له :

- أنا راضية عنك يا صالح .. انا راضية عنك يابني.

ابتسم صالح ابتسامة رضاً. رفعت كفها المعروقة الواهنة فجأة امام وجهها وقالت:

- اقفل يا صالح الشباك.. الشمس ضاربة في عيني.

اختفت ابتسامته وهو ينظر لها مندهشاً إذ كانت النافذة تقع خلفها تماماً، وكان الوقت قد قارب المغرب. نهض ليغلق النافذة في تسليم، وهو يسمعها تسبح وتحوقل كما اعتاد منها. التفت لها حين خفت صوتها، وعلى الضوء الخافت وجدها ترفع سبابتها للسماء.. و تسلم الروح.

**

يشعرُ أحمد بأنه يسير داخل واحدٍ من أحلامه. يركب سيارة فاخرة مع إبراهيم أحد موظفي دكتور مشاري صاحب المستشفى، ويقودها شاب هندي على طرق فخمة السواد. ناطحات سحاب تشق الفضاء شقاً. القفزة واسعة للغاية والمقارنة ظالمة.

أوصله الرجل للملحق الذي استأجرته إدارة المستشفى في العاصمة كسكن له. غرفة واحدة ومطبخ وحمام، ولا شيء آخر. اتصل بزوجته ووالده يطمئنهما أن الأمور على ما يرام. أفرغ حقائبه التي لم يملأها بالكثير من الملابس. أخرج حقيبة صغيرة بها ثوب مطوي بعناية. ظل ممسكاً به لفترة وسرح بأفكاره أبعد من خيال أي أحد. هذه الحقيبة لا تغادر خزانته منذ عدة سنوات. أخفى الثوب الخاص هذا في الخزانة وأغلقها، ثم ألقى جسده على الفراش الذي يكاد يملأ الغرفة، ونام – لأول مرة منذ زمن – بلا قلق من أن يرتفع رنين الهاتف في منتصف الليل بسبب طفلٍ حديث الولادة، أو بسبب طفلٍ محمومٍ، أو مصابٍ بالربو. إجازة قصيرة من المرضى، ومن زوجه كثيرة الطلبات، ومن والده الذي لا يكف عن لومه بسبب انقطاعه عن زيارته. إجازة من الزقازيق، وغبارها، وزحامها ، وإجازة من مصر التي أرهقته .

في الصباح التالي ذهب ليلتقي بالكفيل الكويتي بالمستشفى. تعارفا ورحب به الرجل، وكان أحمد يفهم لغته بمشقة. ثم أخذه في جولة عبر المستشفى، وتعرف على بعض زملائه في العمل بين مصري وسوري وأردني وهندي، ثم أخذه لمكتبه الفاخر المطل على الخليج العربي مباشرة. عيادة أنيقة في الطابق السادس بها مكتب زجاجي أسود أنيق، وعليه جهاز كمبيوتر متصل بالشبكة، سرير كشف، وطاولة عليها أدوات الكشف المطلوبة بالكامل، وحوض صغير بجواره عبوة صابون ومناديل ورقية. تبسم بحزن وهو يذكر عيادة الأطفال في مستشفى الزقازيق العام. المقارنة ظالمة للغاية! إن أطفال الزقازيق يستحقون عيادة نظيفة، وأطباء نجباء، وأطباء الزقازيق يستحقون علبة قفازات طبية، وعبوة معقم للأيدي، وراتباً يكفيهم إلى آخر الشهر. عجزت مصر عن توفير أي شيء من هذا، اللهم إلا الأطباء النجباء! بالقرب من باب غرفته كان يقع مطبخ صغير مجهز لإعداد القهوة والشاي، وبعض الوجبات الخفيفة أيضاً.

تركه الرجل و رحل مردداً المزيد من عبارات الترحيب. جعل أحمد يلتقط لنفسه عدداً من الصور ليرسلها إلى الأسرة. يشعر أنه ارتد بالعمر عشر سنوات، وأنه أخيراً سيجد من يقدر قيمته. يهيأ إليه أن تجاعيد السهر في المستشفيات قد اختفت.

ارتفع صوت طرقات مهذبة على الباب ثم فتح، فوجد وجه العاملة الهندية السمراء تقول بعربية ركيكة :

- سلام عليكم دكتور. ابغي قهوة؟

حملق قليلاً ولم يعتد مخه بعد اللهجة ، حتى كررتها بالإنجليزية. قال بعد اكتمال التحميل :

- نعم من فضلك
- تمرة؟
- What؟
- تمرة ؟ ابغي تمرة ؟

لم يفهم بالضبط ولكنه وافق فهزت الهندية رأسها الهزة الهندية المشهورة فكتم ضحكته. طالما كانوا يتندرون بالهنود في مصر. غابت الفتاة ثم عادت بكوب صغير فيه قهوة خضراء اللون مصنوعة من خليط الهيل و البن، وبضع تمرات في صحن صغير. شكرها بالإنجليزية وتناول مبهوراً القهوة العربية ذائعة الصيت وهي تغادر.

تجرع مرارة الهيل، ثم وجد رسالة من زوجته على الهاتف. لم يكن أحمد قد أدرك بعد أنه سيعود للمنزل مساء فلن يجد زوجه ولا أطفاله. مازالت السكرة تأخذ برأسه. تعجب من نفسه وهو ينظر لرسالتها بما يشبه البرود. أين ذهب الحب؟ كيف تسلل خارجاً من بيتهما وهما غافلان؟

قالت : "وحشتني"

قال: " وانتي كمان"

رسالتان متجمدتان تقطران كذباً. أو فلنسمهما رسالتان انتقلتا من خانة الحب إلى خانة المجاملات الاجتماعية.

لم يجد كل منهما ما يقوله. لقد انتهت الحوارات بينهما منذ زمن. يواري كل منهما وجهه من الآخر يتهربان من الاعتراف بأنهما ولم يسلكا نفس الطريق؛ فضلا من بعضهما.

مضت عدة أيام يحاول أحمد فيها التعرف على الأماكن المحيطة بمنزله. يحاول أن يتفهم التعامل بالعملة الجديدة عليه. تلقى

رسالة من إبراهيم الذي سيكون المسئول عن إنهاء الإجراءات الحكومية المتعلقة بإقامته وهويته وتراخيصه ، تفيد بأن سائقاً سيصحبه إلى إدارة شئون الأفراد غداً صباحاً.

في صباح اليوم التالي، ركب أحمد سيارة المستشفى مع السائق في مشواره الأول لإتمام أوراق الإقامة بدولة الكويت. السائق هندي ضئيل الجسم لا يجيد العربية، ولا الإنجليزية . حاول معرفة اسمه فقال "رازاك"، ولم يفهم منه شيئا بعدها. ظلا كالأطرشين و الفتى يدور بالسيارة ولما يصل لأي مكان. شعر أحمد بالقلق فاتصل على إبراهيم ، الذي تعجب من تأخر أحمد في الوصول إليه.

- ييييه انت وقعت مع عبد الرزاق؟!
- شوفلي حل انا مش عارف اتفاهم معاه.
- افتحلي الكاميرا وريني انت فين..

نفذ تعليمات إبراهيم الذي راح يتكلم مع السائق الهندي بلغة هي هجين من اللهجة الكويتية واللغة الإنجليزية والهندية. تعجب أحمد من قدرتهما على التواصل بهذه اللغة الشائهة. في النهاية وصل للمكان المطلوب، وتلقى السائق سباباً كافياً من أحمد، ومن إبراهيم، ومن سيده الكويتي أيضًا.

الكبر في الكويت سريع العدوى. عندما تجد الجميع يعاملون الهندي النحيل بطيء الفهم باحتقار سرعان ما تجد نفسك -دون أن تنتبه- تتعامل معه بنفس الطريقة، رغم أن وجوده يجعل حياتك أسهل بكثير.

عاد أحمد لمكتبه بعد المشوار المرهق. رغب في بعض القهوة ولم يجد الفتاة الهندية فذهب للمطبخ ، وتوقف عند الباب عندما وجد

الفتى الهندي الضئيل الجسم المدفوع بالأبواب، قد انتحى جانباً ووقف متوجها للقبلة يصلي صلاة الظهر.

**

كان يوماً مرهقاً لشيماء في أروقة مستشفى جامعة الزقازيق. هي تتمزق بين عملها بالوحدة الصحية القريبة من شارع الصاغة ، و بين الجامعة يومياً تقريباً منذ شهر كامل لإتمام أبحاث رسالة الماجستير. تريق ماء وجهها للمرضى وللأساتذة، حاملةً حقيبة كبيرة بها الاستبيانات التي تملأها ببيانات المرضى، وعدد كبير من أنابيب الاختبار، وأدوات الكشف الطبي. تركت صغيريها عند والديها وتدور على قدميها منذ الصباح.

اتصلت بوالدها تطلب منه إحضار الصغار، والمرور لأخذها وتوصيلهم جميعاً إلى منزلها. في الثالثة عصراً كانت تقف مع بعض أساتذتها في القسم بانتباه، وقد استرسل أكبرهم سناً ودرجةً في الحديث لا يلقي بالاً للوقت، وكل الموجودين أصغر منه سناً، وعاجزون عن مصارحته بأنه يهدر عمره وأعمارهم معه .

ظل والدها يلح بالرنين على الهاتف. تغلق الخط وقد تندى جبينها بالحرج. أخيراً بعد نصف ساعة من الثرثرة، يطلق الأستاذ سراحهم، وتنطلق تجري إلى سيارة أبيها متخيلة شكله – و هو ضيق الصدر أصلاً- وقد أهلكه صغارها بكاءً.

لم تكد تصل للسيارة الخالية من الصغار حتى صاح فيها أبوها غاضباً:

- لما انتي ما خلصتيش بتكلميني ليه؟
- غصب عني يا بابا الدكتور قعد يرغي.
- طيب ما تستأذني.. قوليله ورايا عيال!

- حضرتك ماجبتش الولاد ليه عشان نروح؟
- لا تعالي اتغدي الأول..
- يا بابا مش عاوزة اتغدا .. أنا هلكانة و عاوزة أروح ؛ ورايا شغل.
- تعالي اتغدي وروحي براحتك هابقى أوصلك.

ابتلعت شيماء حنقها وصمتت حتى وصلا إلى بيت أبيها . شكوى أمها من الصغار واعتذارها المتكرر قد صعدا بضغط دمها إلى حافة الخطر. شقيقتها الأصغر (شروق) في الثانوية العامة، وتقريباً لا تعود للبيت من دروسها المتواصلة إلا في المساء. كم كانت تخفف عنها، تداعب الصغار و تنفث المرح في البيت الكئيب!

تناولت الغداء بغير شهية وهي شاردة. انتهت سريعاً فإذا بالوالد يدخل ليقيل لساعة أو ساعتين. تحاول أن تبرد رأسها المشتعل غيظاً.

إحساس كاسح بالغضب من كل شيء ومن كل شخص، حتى لو لم يكن له ذنب في يومها السيء. تفرغ عصبيتها على الصغار لأتفه الأسباب.

استيقظ الوالد أخيراً قبل أذان العشاء بقليل ومنَّ عليها بالتوصيلة المرتقبة أخيراً. عند بيتها اكتشفت أن الصغيرين قد استغرقا في النوم. حملت مهند الصغير مع حقيبتها الضخمة أولاً وارتقت الأربعة طوابق حتى وصلت لشقتها وتركته في فراشه، ثم عادت للنزول لتعيد الكرة حاملة زياد ابنها الأكبر مع حقيبة الأولاد وما فيها من حفاضات وملابس وطعام إلى آخره. اطمأن والدها على وصولها بسلام ودون انزلاق غضروف، ثم رحل.

ألقت جسدها على الفراش ونظرت للرسالتين الباردتين بينها وبين زوجها. في مثل هذه الأيام كانت تود دوما لو يحمل عنها شيئاً من أثقالها. تود لو كان هنا تطلب منه ضمة ومسحة على رأسها، وستحارب العالم بعد ذلك. لم تطلب أبداً..كانت تظن أنه يفهم .. كانت تنتظر أن يفعلها وحده، ولم يكن يفعل. تسقط في النوم وتسقط دمعتها الساخنة على الوسادة.

**

مضت ثلاثة أيام لم تتصل سمية فيها بزوجها منذ علمت بوفاة أمه. هي تعرف كيف حاله الآن و كيف هو مشغول بواجبات العزاء. استغلت ذهاب الأولاد للمدارس في اليوم الرابع وأرسلت لزوجها تتفقده فاتصل بها.

كان قد غادر قرية (بني قريش) واتجه لشقتهما التي اشتراها في حي (القومية العربية) الشهير بمدينة الزقازيق. فتح المكالمة المرئية فبدا لها محمر العينين يرتدي قناعاً من الهدوء. أشفقت عليه وقالت بعطف :

- ازيك يا صالح؟ شد حيلك!

لم تكد تنطقها حتى سقط قناعه وانفجر باكيا كالطفل، فالتاع قلبها وسالت دموعها هي الأخرى. ظلت صامتة لدقائق وهو يفرغ شحنته كاملة. حاول أن يكبح نفسه وبدأ يتنفس بعمق ليسيطر على نفسه. ربما هذه هي المرة الأولى في حياتها كلها التي تراه فيها يبكي بهذا الشكل وهذا ما لوّعها.

أخيراً تكلم بصوت متحشرج يجاهد ليزيح البكاء حتى يتحرر من حنجرته:

- ازيك يا ام محمد .. وازاي الولاد ؟

- احنا بخير، مش ناقصنا غيرك..
- انا في الزقازيق دلوقت.. هاستنى أحضر الخميس معاهم، واجي أول الأسبوع إن شاء الله.
- تيجي بالسلامة يا رب.
- أخبار الكورونا عاملة قلق جامد!
- ربنا يستر.. احنا هنا كويسين خالص.. بيقولوا في حالات اكتشفوها في اللي راجعين من إيران.

سرى التوتر في كيانه. يعلم أن كثيراً من الكويتيين يذهبون لإيران بغرض التسوق و السياحة، و إيران هي ثاني بؤرة من بؤر الوباء. قال بحزم:

- قعدي الولاد يا ام محمد.
- طيب و المدارس ؟
- مش مهم.
- ماتخافش هما بيهولوا بس.. الموضوع بسيط.
- لا برضه.. انا قلقان وقلبي مقبوض!
- بعد الشر عليك وعلى الولاد.. خلاص هقعدهم.

صمت صالح برهةً في تأثر، ثم قال:

- ربنا ما يحرمني منك يا سمية .. كنت محتاجلك جنبي اليومين دول.

قليلاً ما كان يناديها باسمها.. و هذا القليل يسعدها لأنه دوماً مرتبط بجملة ثناء أو تعبير عن الحب. الحب الذي هو موجود دائماً رغم أنهما لا يقولانه.

- ولا يحرمنا منك يا صالح وتيجي بالسلامة ان شاء الله. الله يرحمها ام عطية، ان شاء الله من أهل الجنة ..ماتزعلش، هي الدنيا دي يتزعل عليها؟

- غصب عني يا ام محمد!

- ربنا يصبرك يا رب ... قوللي بتاكل كويس ؟

- انتي عارفة الشراقوة ما يتوصوش. الولاد ما رجعوش؟ وحشوني ولاد ال..

- ماتشتمش ابوهم ... دا الغالي

- وحشتوني كلكم و الله.

**

الكويت مثل قاع المحيط. جنسيات كثيرة، ديانات شتى، كلهم يسبحون معاً، يتحمّلون اختلافاتهم رضاً أو غصباً. يتفاهمون معاً رغم لغاتهم ولكناتهم التي لا حصر لها. المصعد يسافر للأعلى في مبنى المستشفى التي يعمل بها أحمد، حاملاً المنتقبة، والمحجبة، وحاسرة الشعر، وذات الوشوم وعمليات التجميل. الشارع الذي يسكن فيه يعبره مصريون، وهنود، وفليبينيون، وبنغال، وسوريون . من يعبدون الله، ومن يعبدون الصراصير. إن الكويت ليست الجنة، وسكانها ليسوا الملائكة، ولكن القانون حازم جداً، والجميع يخاف على لقمة عيشه، وعلى الاسرة التي خلفها وراءه في مصر، أو الهند، أو سوريا، أو الفلبين.

تعرف أحمد على ساكن واحد أخيراً. جراح ألماني أحمر، سنه لا تقل عن الستين. ظريف ذو ذاكرة سمكة، يسلم عليه في كل مرة كأنه يراه لأول مرة .. و في كل مرة يسأله عن عمله فيخبره أنه طبيب. ينزل الألماني في المصعد حاملا علبة صغيرة بها بعض الحليب لقطة مهزولة تسكن أسفل البناية. المسكينة لا تجد قمامة

لتأكلها! يحدث أحمد نفسه ساخراً: جدير بأقربائها في مصر أن يبعثوا لها بعقد عمل!

أحمد يمشي وحده، يأكل وحده، وينام وحده. طعامه رديء محترق القعر في معظم الأحيان. يدخر الدينارات القليلة التي حصل عليها كسلفة من الكفيل حتى يتسلم راتبه، وينفق بتقتير شديد.

الصين كعادتها تختبر صبر العالم بفيروس جديد. الفيروس ظهر من نهايات العام الماضي، وظل العالم متفائلاً بأنه سيكون فيروساً محلياً يقضي على بعض الصينيين، فهم كثرُ! ولكن تفاؤل العالم لم يكن في محله. في لمح البصر بث الفيروس في العالم، وفقدت السيطرة عليه، والعائدون من رحلاتهم في إيران يدخلون إلى الكويت بالوباء الذي لما تكتشف طبيعته.

تسارعت أخبار انتشار فيروس كورونا في الكويت، والناس بين مفرط في التفاؤل ومفرط في القلق. بالنسبة لكوكب وسائل التواصل الاجتماعي فالوضع أشبه بالمخبز الذي تزاحم عليه البشر؛ فأصبح الخبز يخرج للناس غير مكتمل النضج، والناس تلوكه وتنشره في فزع.

كان أحمد يحاول أن يترك مخاوفه في المنزل ويهون الأمر على نفسه، يذهب للعمل فيجدها تنتظره. زملاؤه يتحدثون عن الكثير من حالات الاشتباه. يحاول ألا يصدق ولكن كيف؟

وبينا هو جالس وحده في المساء، هزه شوقه لرؤية صغاره. اتصل بزوجته القلقة دائماً:

- ازيك يا شيماء؟
- الحمد لله.. إيه الاخبار عندك؟ لسة كنت هكلمك.

- ما تقلقيش الناس هنا واخدة احتياطها، وبيعقموا كل حاجة، والكمامات في كل حتة .

- ربنا يستر.. الناس هنا مفيش أي اهتمام!

تهرب من استكمال الحديث المثير للتوتر:

- فين الولاد؟

نادت شيماء زياداً الصغير ليكلم والده وحملت مهند. ملأ أحمد عينيه من أسرته الصغيرة. كيف كانوا عنده وكان مشغولاً عنهم. وهل كان يملك فعلاً اختيار التفرغ لهم ولم يفعل؟ لاحظ أحمد أن زياد لم يتعجب كثيراً لغياب أبيه، وأنه يظنه -طوال هذا الوقت– في عيادته كما كانت أمه تقول له دوماً. كان هذا موجعاً للغاية!

ذهب الصغار لاستكمال لعبهم، وتكلمت شيماء مع زوجها. القليل من الديباجات المعتادة :

- كلت إيه النهاردة ؟

ضحك بسخرية و إجهاد :

- كشري محروق!

رفعت حاجبيها بعطف، وقالت:

- ليه كدة ؟ ما تبخلش على نفسك.. لو عاوز اجيب فلوس من بابا و أحول لك!

- لا أنا لازم اتعلم اتصرف. وبعدين هتحولي ازاي كل حاجة هنا لازم بيطلبوا فيها البطاقة المدنية، ولسة ورقي ما خلصش.

- كل اللي عملناه في مصر وما خلصش؟ .

ضحك في مرارة وقال :

- هه .. احنا مشكوك في نزاهتنا لأبعد حد ممكن تتخيليه.

بكاء مهند اضطرهما لإنهاء مكالمتهما الرمادية. يتصل بوالده ليطمئن عليه وليكرر وصاياه اليومية بعدم الخروج إلا للضرورة.

الحرارة منخفضة في الكويت على عكس ما كان يظن، فهو لم يحضر ما يكفي من الملابس الشتوية. ارتدى كل ما يمكن ارتداءه وتدثر ببطانيته الوحيدة. وحشة كاسحة زادتها سوءا معدته التي تقرقر من الجوع.

أخذ يتقلب في فراشه يستعيد ذكريات الحب القديم. كيف ابتعدا لهذه الدرجة ؟ كيف أمست مكالماتهما المطولة مجرد أسئلة وأجوبة تيليغرافية بهذا الشكل ؟

الأسئلة ليس لها إجابة والنوم لا سبيل إليه، فنهض يقلي بيضتين يسكت بهما الوحوش العابثة في دماغه، وفي معدته.

مارس ٢٠٢٠

أغلقت المدارس في الكويت، ومكث أولاد صالح وسمية في المنزل يفرمون الوقت في مفرمة الأجهزة اللوحية. سمية فقط تنزل لشراء حاجيات المنزل. الزحام شديد والحكومة تفقد السيطرة على الهلع الذي أصاب الجميع، وراح الناس يخزنون كميات هائلة من السلع.

تمتنع عن الطعام بسبب قولونها القلق. المرة الأولى التي تشتري فيها حاجيات البيت دون صالح. الشائعات المرعبة تكاد تشم رائحتها في الهواء. تحاول سد أذنيها وهي تقود السيارة عائدة من السوق، وإلى جوارها تجلس جارتها السورية أم ورد. تقول أم ورد بلهجتها المميزة:

- يا الله دخيلك! شفتي الزحام كيف؟! كل هيدا وما جبنا شي!
- أنا مرعوبة يا ام ورد من كل اللي بيحصل. الله يرضى عنك مش مستحملة كلمة!
- أبو محمد بعده بمصر؟
- المفروض كان يجي النهاردة، وقالوا لازم تحليل اللي بيقولوا عليه بتاع الكورونا .. مش عارفة هيعمل ايه؟ شكله هيتأخر.
- الله يجيبه بألف سلامة.
- والولاد حاجة صعب. لسة أول اسبوع في البيت وهطق.
- دخيلك لا تذكريني!

دخلت سمية إلى المنزل والأولاد يسألون عن طلباتهم الخاصة من المسليات والحلويات المعتادة فلم يجدوا إلا القليل. نهرتهم ليبتعدوا عنها، وبدلت ثيابها وغسلت كل شيء، بدءا من يديها ووجهها، إلى أكياس الخضر التي تمكنت من شرائها، وحتى أكياس الحلويات رشتها بالكحول.

سمية يجتاحها الإحباط، القلق يقبض على قلبها بيد من ثلج ، تفكر في كل شيء. هل الوباء قاتل بالفعل؟ ماذا لو أصيبت أو أحد أولادها؟ وماذا لو أصيب زوجها أو أمها في مصر؟ تفكر في

زوجها الذي توقف عن الدروس وهو في مصر الآن. كيف ستسير الأمور؟ هل تأخذ الأولاد وتلحق به في مصر وليكن ما يكون؟ أم أن الأمور ستتحسن وزوجها سيعود إلى الكويت، وسيكون كل شيء على ما يرام؟

جحيم من ال"ماذا لو؟" يحاصرها. دخلت لتصلي لعل قلبها يهدأ. هذه عادتها التي ورثتها من أمها العجوز المقيمة بالزقازيق الآن. تقول إن كلَّ معضلةٍ حلُّها في الصلاة، وإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك. جدها لأمها كان عالماً أزهرياً و أورث ابنته - قليلة التعليم - الكثير جداً من الدين.

سلمت من ركعتي النفل، ورفعت كفيها تدعو الله أن يسلم زوجها، وأن ييسر له العودة. دخل إليها عمر ذو الستة سنوات. نظر لها بخوف وقال:

- ماما هي الكورونا بتموت الناس في الشارع؟
- مين قاللك كدة يا عمر ؟!
- شفت على يوتيوب الناس بتقع تموت لوحدها!

ضمته إليها وقد راعها خوفه، وقالت:

- حبيبي ما تصدقش اليوتيوب ..الكورونا دا مجرد برد عادي. الحاجات دي بيعملوها عشان يخوفوا الناس.

أقبل محمد ومنة – الابنة الوسطى- ولا تزال الأجهزة اللوحية متعلقة بأيديهما. سألا عن والدهما فلم تجب الأم. أقبلا و انضما إلى عمر الجالس على الأرض. قالت الأم بعد تفكير:

- بصوا يا ولاد .. دلوقت احنا داخلين على ظروف صعبة. بابا لسة في مصر واحنا هنا مش عارفين ايه اللي

هيحصل لازم نستعد اننا ممكن نجيبش كل اللي احنا عاوزينه، ونوفر في مصاريفنا لغاية ما الأزمة دي تعدي بإذن الله.

قال الشاب الصغير محمد:

- هو بابا مش هيعرف يجي؟

اجابته بحزم :

- هيتأخر شوية عشان الإجراءات والحجر الصحي .. بابا معتمد علينا ولازم نبينله اننا قد المسئولية.

كعادتها بدأت منة بالبكاء مبكراً، فضمتها سمية وقالت:

- ماتخافوش يا ولاد .. ربنا معانا وهيحفظنا، والحمد لله عندنا الأكل والشرب مش ناقصنا حاجة، وبابا إن شاء الله هيرجع في أقرب وقت.

**

أحكم صالح غلق النوافذ وسد حوافها بقطع القماش كما طلبت منه زوجته. لا يفعل هذا استعداداً للسفر. لقد تأخر السفر إلى أجل غير مسمى وقد أعلنت حكومة الكويت توقف رحلات الطيران. إنه يفعله منذ أعلنت الأرصاد الجوية عن هبوب عواصف رعدية وهطول أمطار غزيرة لم تمر بها مصر من قبل، يسمونها عاصفة التنين. جلس في شقته جيدة الأثاث جديدته، والخالية من البشر، وحده، يحمل رأسه المثقل بكفيه. مرت به وبأسرته الكثير من المشكلات،ولكن هذه هي الأولى من نوعها. تمتم بذكر الله يحدث نفسه لعل الطيران لو كان مفتوحاً في هذه الظروف لتعرضت طائرته للخطر.

توقع صالح مبكراً أن يُغلق الطيران. جعلت سمية تستعيذ بالله من الفأل السيء ولكنه -على عكسها- يفضل توقع الأسوأ وأن يستعد له. اتفق مع زوجته على تحديد مبلغ للنفقات لا يتم تجاوزه، حتى يتبين أبيض هذه الأزمة من أسودها.

أخذ يدور في شقته كالأسد الحبيس. ألقى نظرة من خلف النوافذ الزجاجية وتوجس خيفة من السحب الداكنة المصفرة، والتي تتجمع في السماء. تذكر فجأة حماته التي تسكن وحدها في أحد مناطق الزقازيق الشعبية. فضل أن يبقى جوارها لعل الأمور تتأزم فتجده جوارها.

السماء تتزايد في إظلامها بشكل مرعب، وبدأت شوكات من البرق تلمع من حين لآخر وقد نزل من بيته يرتاد أول سيارة أجرة، ويتجه لبيت حماته المتواضع.

شوارع الزقازيق مكتظة للأبد. الأزمات المرورية ليس لها نهاية. كف منذ زمن عن مقارنة شارع الصاغة أو شارع الحمام في الزقازيق بشارع الخليج العربي أو شارع تونس في الكويت. لقد أصبح كبيراً بما يكفي ليكف عن المقارنة، وليعترف بالكويت كمحل عمل، ليعترف بالزقازيق بكل زحامها وضوضائها، وبكل دفئها وطيبتها وطناً لا يمكن التبرؤ منه.

الزقازيق متسرعة فيما يخص الأمطار. فوراً بدأت الأمطار تهطل من السحابة المظلمة، و بدأت الشوارع تتحول إلى أنهار من الطين وهو يقترب من شارع الصاغة حيث تسكن حماته. فوجيء بسماع دوي عال متتابع ولمعان شرر بالقرب من بيت المرأة العجوز. لقد تسبب المطر في ماس كهربائي خطير.

**

تجمد الناس في رعب عاجزين عن الاقتراب، وأخذ صالح يخترق الحشود التي تعالت أصواتهم بين المستغيثين من داخل البناية والمتصايحين خارجها، يدعون الناس لإغلاق مصادر الغاز و الكهرباء والاتصال بالدفاع المدني.

لمح مدخل الزقاق المؤدي لبوابة البناية، فتحيّن سكون الشرر لثانية وقفز يخترق مدخل الزقاق، ودخل إلى شقة حماته الضيقة المندثرة في الطابق الأرضي، وقد اكتظ الزقاق والمدخل بالسكان. في وسط هذا الجنون لم ينتبه الجيران لغياب المرأة العجوز الوحيدة التي تسكن غرفة في الطابق الأرضي.

وصل بأعجوبة لباب الشقة المتوارية. طرقاته تتعالى على الباب لا يبالي بالضجة، ولا بثيابه المبتلة بالكامل. انتبه بعضهم لطرقاته اليائسة، وانتبهوا كذلك لغياب أم سمية . بدون الكثير من الأسئلة دفعوا معه باب الشقة حتى انكسر رتاجه وانفتح ووجد المرأة نائمة على الكنبة البلدية العتيقة. أسرع نحوها وكانت لاتزال تتنفس، ولكنها لا تستجيب لأي محاولات إفاقة. لم يفكر صالح كثيراً.

خرج صالح من المنزل المتهالك يحمل حماته العجوز النحيلة على كتفه، وانطلق خارج المنزل الذي يفرقع جواره الماس الكهربائي منذراً بكارثة، والجيران يصيحون به محذرين، وهو يحاول الفرار من هذه الفوضى القاتلة.

لا يعلم كيف حملها وخرج دون أن يمسه الشرر المتطاير، كما لا يعلم ما الذي أنزله من بيته في هذه الساعة ودفعه دفعاً إلى بيتها. سأل الناس في الطرقات فأرشدوه للذهاب للوحدة الصحية القريبة، فجرى بها يتفادى الانزلاق على الطين و المطر الغليظ ينهال عليهما.

**

كانت شيماء تقضي نوبتجيتها السيئة في الوحدة الصحية القريبة من شارع الصاغة تنظر من خلف شباك العيادة إلى السماء المظلمة، وتتصل من وقت لآخر تطمئن على صغيريها اللذين تركتهما لدى والديها. فجأة سمعت صياحاً بالخارج، وكان ذلك صالح يحمل المرأة المسنة فاقدة الوعي،وقد حملت ساقاه أرطالاً من طين. ركضت شيماء نحوه، وتعاونت مع الممرضة المناوبة لنقلها إلى غرفة الكشف. كشفت على السيدة وسألت للرجل المبتل ماء و طيناً بعض الأسئلة، وبسرعة طلبت من الممرضة قياس سكر الدم، وما توقعته كان، و في دقائق كان المحلول السكري يسري لدم حماته التي كتب الله لها عمراً لم تعمل حسابه، وبدأت تفيق تدريجياً.

نظرت شيماء للرجل بإشفاق وهو يرتجف،وقالت:

- تحب نجيبلك حبة شاي؟
- متشكر يا دكتورة يعطيكي العافية.
- ربنا كتبلها عمر.. هي أول مرة تجيلها غيبوبة السكر ؟
- مش عارف .. أصل انا مش ابنها، أنا جوز بنتها و عديت عليها بالصدفة.

أي صدفة ستجعل الإنسان يمر على حماته في طقس كهذا. لم تكثر من الأسئلة فقد اعتادت الأعاجيب من أحوال المرضى، ولم يعد يثير دهشتها شيء. قد بدأت أم سمية تفيق، وتتسائل في وهن:

- انا ايه اللي جابني هنا؟

أجابها صالح وهو يضحك مرهقاً:

- أنا يا حاجة اللي جبتك .. دانتي ربنا كتب لك عمر.
- صالح؟! انت ماسافرتش يابني ؟
- لا ما خلاص يام سمية الطيران اتسكر.

كانت شيماء تعيد قياس الضغط وتطمئن على علاماتها الحيوية، والرجل يحكي عن إخراج الله له من بيته لينتشل المرأة الوحيدة من بين مطرقة السكر وسندان الحريق. تعجبت شيماء وهي تستمع لحديثهم حتى سمعته يذكر اسم الكويت، فسألت :

- هما قفلوا الطيران في الكويت؟

أجابها صالح في أسف:

- امبارح بس .. انا سايب مراتي و ولادي هناك.

رفعت حاجبيها في تأثر قائلة:

- لا حول و لا قوة إلا بالله .. ربنا يطمنك عليهم.

ترددت قليلاً ثم قالت:

- أنا زوجي دكتور اطفال، لسة مسافر من أسبوعين تقريباً.

أجاب صالح مرحباً :

- يا هلا يا دكتورة .. انا اسمي صالح محمد عطية ... أنا مدرس رياضيات ثانوي.

رحبت به بدورها،وبعد تعارف سريع تبادلا أرقام الهواتف. شعرت بالندم مع إملاء آخر رقم. طالما كان أحمد يلومها لتسرعها في الانفتاح على الناس ونشر أسرارها ورقم هاتفها مع من تعرف ومن لا تعرف.

**

هتفت سمية عبر المكالمة المرئية مع زوجها:

- صالح .. حرام عليك انا كنت هموت من القلق!
- اهدي يا ام محمد انا كويس وامك معايا اهي ..احنا في القومية في شقتي.

أخذ يقص عليها باختصار ما حدث، فقالت سمية:

- الله يسامحك يا ياماما! قلتلك تسيبي الشقة دي .. لولا ستر ربنا كان زمانها بعد الشر ...

قاطعها صالح قائلاً:

- خلاص يا ام محمد مالوش لازمة الكلام دا.. هي كويسة والحمد لله اطمنا عليها. خدي كلميها

تبادلت سمية مع أمها حديثاً باكياً . هي ابنتها الوحيدة أنجبتها بعد عمر من تأخر الإنجاب و لم يرزقها الله بسواها. و يوم علمت بسفرها مع زوجها شجعتها للحاق بزوجها حيثما كتب الله الرزق، و هي تتمزق ألماً. عوض الله أم سمية بعد وفاة زوجها وسفر ابنتها بعدد من الجيران الكرماء الذين كانوا يرعونها ويتفقدون أحوالها من وقت لآخر. ولذلك لم ترغب في ترك شقة العمر.

قالت أم سمية :

- اهدي بالله يا بنتي .. كله بقدر الله مفيش في إيدنا حاجة.. إن شاء الله أزمة و تعدي ..
- أنا مرعوبة عليكم في مصر، ومرعوبة هنا على نفسي و العيال ... قلبي مش حمل دا كله.

قالت أمها بحزم :

- اجمدي يا ام محمد ... و هو انتي لو هنا هتحوشي عني الموت؟

صمتت سمية و الدموع على خديها. تدخل صالح الذي بدل ثيابه المبتلة و عاد ليستمع لحماته الحكيمة. قال:

- الله يعطيكي الصحة يا حماتي... والله كلامك دهب.

تناول منها الهاتف و كلم زوجته قائلاً :

- ما تخافيش يا سمية، أمك في عيني مش هسيبها، انتي عارفة.
- ربنا ما يحرمني منك.
- فين العيال امال؟ .. هاتيهم يكلموا ستهم

**

ارتاد أحمد المصعد متجهاً لمنزله في السابعة مساء. ضغط زر الطابق العاشر، ولم يكن الباب قد أغلق بعد إذ وجد فتاة تحول بين دفتي الباب، ثم تدخل وتضغط على زر الطابق السابع. نحيلة آسيوية فاتنة صبغت شعرها بدرجة من درجات الأشقر فبدا فاتنا رغم غرابته. ألقت له ابتسامة ناعمة سامة فابتسم بتوتر وأشاح بوجهه. سألته بالإنجليزية:

- أنت جديد هنا ؟
- نعم.
- طبيب؟ معظم السكان هنا من الطاقم الطبي.
- نعم .. اعمل بمستشفى (.....)
- أنا جانيت .. ممرضة بمستشفى(....)
- أهلاً.

حمد الله أنها وصلت للطابق الذي تسكن فيه ، فودعته وغادرت، وذهب هو إلى شقته متعرقاً في حالة مزرية. انتفض على صوت الهاتف. أجاب زوجته عبر المكالمة المرئية، وتعجبت شيماء من العرق الذي ندى جبينه، والتوتر البادي عليه وكأنه خاض حرباً:

- أحمد انت كويس؟
- الحمد لله ما تقلقيش.
- الجو حر عندك ولا إيه؟!
- لا بالعكس دا برد جداً.. ماتخافيش أنا كويس والله .. انتو عاملين ايه؟
- الجو وحش أوي والشوارع غرقانة.
- ربنا يستر!

جلبت الصغار ليروا والدهم عبر الهاتف فهدأ قليلاً عن حالته السابقة. لاحظت شيماء أنه أطال المكالمة على غير العادة.

تناولت الهاتف تقول :

- كل سنة وانت طيب. رمضان قرب خلاص
- وانتي طيبة يا شيماء.

تأملا بعضهما لفترة دون كلام، ثم قالت شيماء:

- البيت وحش أوي من غيرك!
- وهو أنا كنت بالحق اقعد في البيت؟
- ولو .. مجرد نفسك .. هدومك .. اني أنام وعارفة إني هاصحى الاقيك.
- بجد يا شيماء؟!

هزت رأسها إيجاباً، وقد لمعت الدمعة في عينها. ابتسم وهو يقول:

- لو اعرف انك بتحبيني كدة ما كنتش سافرت!

عبارته آلمتهما معاً. لم ينطق أحدهما من قبل بأن الحب قد غادر المنزل. كلاهما يعرف ولكن أحداً منهما لم يعترف قبل اليوم، وها هو يعود متسللاً بين مكالماتهما. قال بعاطفة مشبوبة:

- وانتي كمان وحشتيني .. ماتعرفيش كنت محتاجلك النهاردة ازاي!

**

رمضان يقترب والحزن مخيم على جميع بلاد الإسلام. المساجد مغلقة، التجمعات العائلية ملغاة، وهناك من شتتهم الوباء، وقد اعتادوا السفر وقضاء إجازاتهم في مصر مع بداية رمضان . أعداد المصابين في زيادة جنونية. وباء الكورونا يسري في العالم يحصد الناس حصداً؛ لتمتلئ غرف العناية المركزة بمرضى الفشل التنفسي. جو من الغموض والريبة يحيط بهذه "الجائحة"، ورغم كثافة التغطيات الإعلامية فإن الشائعات تتكاثر مثل الدود. وهذا جعل الناس عاجزة عن تصديق شيء بنسبة مائة بالمائة. يظنون أن الأعداد المعلنة في مصر أقل من الحقيقة، وأن الأعداد المعلنة في الكويت أكثر من الحقيقة.

الوضع يزداد تعقيداً عند صالح في الزقازيق. المدرسة التي يعمل بها أبلغت العاملين بتأجيل دفع جميع الرواتب حتى شهر أغسطس بحجة أن أولياء الأمور لم يدفعوا المصروفات، ومن يعترض عليه تقديم استقالته. ثم أصبح صالح مضطراً لإيجار شقة لحماته بما يزيد عن ألف جنيه شهرياً بدلاً من شقة "قانون الإيجار القديم" التي كانت تدفع لصاحبها مائتي جنيه شهرياً فقط. وبالفعل بحث عن شقة صغيرة مناسبة وبعض قطع الأثاث، وأعد لها المنزل

الجديد بالقرب من الشارع الذي طالما أحبته. قلبه مظلم مثل السماء التي لم تتوقف عن إظهار غضبتها منذ يومين كاملين.

الخناق يضيق عليه، عاجز عن التخطيط ليومين تاليين. خائف على الرزق، خائفٌ من المرض، خائفٌ من الموت، خائف من كل الاحتمالات.

اتصلت به زوجه وقد علمت بالخبر. صمت طويل مر قبل أن تتكلم سمية أخيراً:

- هتعمل ايه يا صالح؟

قال بيأس:

- فوضت أمري لله!
- ونعم بالله

ترددت ثانية قبل أن تتكلم:

- بص يا صالح .. أنا بافكر أعمل أكل في البيت وأبيعه.

ألقت تصريحها الناري بسرعة خوفاً من أن تتراجع. ضم حاجبيه، وهو ما بين متضايق ومتحير. أكملت :

- ناس كتير شغالة من البيت دلوقت. محمد كلم أصحاب المحلات القريبة هنا، وممكن نجيب منهم كميات بسعر أرخص شوية. دي ممكن تدخل لنا قرشين كويسين لغاية ما الأزمة تفرج.
- احنا مش فقرا يا سمية عشان تشتغلي الشغلانة دي!

- وهما الفقرا بس اللي بيشتغلوا؟ و بعدين مالها .. شغلانة حلال، واحنا مش عارفين الأزمة دي هتتفك امتى.

تنهد يائساً. معظم مدخراته المنهكة أنفقها في شراء وتأثيث شقته الفاخرة في الزقازيق. ما تبقى لن يحتمل أن ينفق دون حساب. مهما كان المبلغ الذي ستتحصل عليه سمية قليلاً فهو أفضل من البقاء بدون راتب على الإطلاق. قال في محاولة أخيرة وكأنه يبحث عن مبرر أخير للرفض:

- تعب عليكي يا ام محمد!
- مانت ياما تعبت عشاننا .. مفيهاش حاجة نتعب احنا شوية.. والولاد معايا وهيساعدوني.

تنهد مرة أخرى وقد نفدت حججه الواهية. نظر لها عبر الهاتف بامتنان وقال:

- عرفت قيمتك يا ام محمد.. ربنا يجمعنا على خير!

تبسمت سمية بحب، وقالت:

- وانا عرفت قيمتك يا غالي يابو الغاليين!

ابتسم فجأة ابتسامته الماكرة التي تعرفها:

- انتي عارفة انا نفسي في إيه دلوقت؟

ضحكت سمية لأنها تعرف مقصده من هذه العبارة. الاشواق والحب يصلان لمدارات الاقمار الصناعية. قالت بضحكة خجلى رغم مرور كل هذه السنوات بينهما:

- عارفة ومش هقوللك!

**

التقى أحمد الفتاة الآسيوية بضع مرات في الذهاب والإياب. كانت تلاحقه بابتساماتها ونظراتها الجريئة إذا التقته في السوق القريب. يتحدثان في ثواني المصعد عن أحوال البلد والكورونا، ثم عن عطره وعن علاج لبشرتها. محاصر منها ومن الشيطان ومن نفسه، ثم تم تقليل ساعات العمل بالمستشفى وضاق الحصار عليه.

تم تقليل الرواتب ولم يهنأ احمد على راتب كامل حتى ذلك الحين. رمضان يقترب وثلاجته خاوية. رمضان قادم وسيقضيه وحده بدون أسرته ووالده وإخوته وأصدقائه. سيكون رمضان مختلفاً، سيكون رمضان خانقاً.. يشعر أنه بصدد اختبار شاق للغاية. هل كل من يقبلون على تغيير مساراتهم في الحياة يتعرضون لمثل هذه الزلازل؟

لم يتم استخراج تراخيصه وهويته بعد، لذلك لم يتم السماح له بالانتظام في العمل ولو بالطوارئ مثل زملائه. سيمكث في بيته إلى أجل لم يسم بعد. ود لو تشاجر مع الكفيل، ولكن عن ماذا سيسفر هذا الشجار؟ لقد أصبحت عارياً منذ تركت بلدك! لن يحميك أحد هنا؛ فها هم المصريون عالقون يقبلون أقدام السفير المصري ليعيدهم لبلادهم. أنت عارٍ منذ كتب في شهادة ميلادك " مصري"!

لقد أنفق الكثير من المال والوقت والمجهود لكي يصل لهذه المحطة من حياته. الديون تنتظره في مصر ليسددها. تركُ كل شيء والعودة إلى مصر الآن يعني الانتحار.

يقولون إن أول ستة أشهر من الغربة هي الأصعب. فليصبر ولا يتعجل الأمور لعل القادم أفضل. لطالما قالوا في مصر (لا حلاوة بدون نار)، وهذا من أصدق ما قالوا.. كل المصريين يذوقون النار، ولا أحد يدري متى تأتي "الحلاوة"!

أبريل ٢٠٢٠

عبقت شقة سمية وأولادها بالكويت برائحة الطعام في نهار يوم من أوائل رمضان "الكورونا". الصالة مزدحمة بأطباق، وأكياس، وأوانٍ، وسطح الموقد وقلب الفرن مزدحمان بأنواع من الأطعمة.

انتثر الأولاد في ردهة البيت، هذا يقطف، وهذه تفصص، وهذا يكتب أسماء في دفتر ويتابع الصفحات التي أنشأتها والدته على وسائل التواصل. سمية كالنحلة بين المطبخ وبين الصالة.

رزقها ألقى في طريقها واحدة من أكثر الناس اجتماعية في مجتمع المغتربين. وفي لمح البصر اشتهرت أم محمد بطعامها الشهي، وبقدوم رمضان كانت الطلبات تصل للعشرة . بدأ صالح يلين لمشروعها الصغير وهو يحس بسعادتها وحماس الاولاد. سعيدة بإنجازها، بالمال الذي أصبح يعود على الأسرة من جهدها وعرق جبينها، وسعيدة بمدح الناس لطعامها.

**

لم يدر كيف ساقته قدماه إلى هذه الشقة المتسخة. في ركن الغرفة تقبع النارجيلة. صرصور صغير جرى مسرعاً من الصالة إلى المطبخ. لم تضيع وقتاً.

جذبته من تلابيب شهوته فوراً.. مذاق فمها كمنفضة السجائر.. غارق في عرقه، في سكرته، في إثمه. تصرعه، تخلع كبرياءه، يتجرد من إيمانه بالله لمدة عشرين دقيقة. يسكب شبقه. يفيق في اللجة الآسنة التي سبقه إليها عديدون. إحساس بالغثيان وكأنه تحمم في بركة من ماء الصرف. يرفع كبرياءه وإيمانه اللذين خلعهما من على الأرض. يضعهما على جسده المتنجس ويرحل.

**

أيها الرجل الذي كان مؤمناً!

لحيتك الشابة تشهد عليك. المسجد الذي كنت تنتظم في صفوفه منذ كنت طالباً بالكلية يشهد عليك. كنت تظن نفسك شيخاً، فعلمت الآن أنك مجرد حيوان سال لعابه على امرأة ربما تعبد فأراً.

أحمد يقف تحت ماء الدش يحك جلده يود لو ينتزعه انتزاعاً. يبكي كالطفل، أي شيء أسوأ من أن تكره نفسك التي بين جنبيك؟! أن تبغض جلدك و عظامك؟ أن تحتقر وجهك الذي يحاصرك في المرايا؟ أين تفر منك؟!

يصلي باكياً متنكراً لنفسه. يطيل السجود عل الذنب يسقط عن ظهره. يشعر به ناشباً في لحمه بأنياب ومخالب من حديد. يوسوس له الشيطان بأن المرة الأولى دائماً شاقة هكذا، ولكن لن تلبث أن تتلذذ بالأمر. يخبط رأسه في الأرض حتى يؤلمه.

ظل محتبياً في الأرض لساعة أو يزيد، يتمتم بالاستغفار حتى يكل لسانه. نهض يتجه لخزانته، فتحها وأخرج الثوب الغامض المطوي بعناية، والذي يحتفظ به معه ليمنعه من الوقوع في مثل هذا الإثم.. ولكنه وقع.

يفتح المصحف الذي لم يفتحه منذ لا يدري كم. الشريط كان متروكاً في وسط سورة البقرة. " و لأمة مؤمنة خيرٌ من مشركة و لو أعجبتكم". الدمع سخين يكوي خده. يتذكر زوجته الطاهرة النائمة بجوار عيالها في مصر تحفظ عرضه و أولاده. " أولئك يدعون إلى النار و الله يدعو إلى الجنة و المغفرة بإذنه".

كان أحمد ينوء بحمله. ذنبه يرقد بين أضلاعه كجمرة تحرقه. وبينما تلتهمه الوحشة وإحساسه بالذنب، أقدم على أغبى فعل يمكن أن يقوم به رجل في موقفه.

يريد أن يدفع ثمن هذا الجرم عاجلاً مهما كان هذا الثمن غالياً. ليته يجد قاضياً يعترف له فيحكم عليه بالموت أو الجلد. أقسم على نفسه الآثمة أن تدفع ثمن ما جرّته إليه، وألا يدعها تنام هانئة ولو لساعة واحدة.

فتح محموله وأرسل رسالة مقتضبة إلى زوجته..

رسالة من ثلاث كلمات..

"شيماء .. أنا خنتك."

**

صمت أحمد تماماً وهو ينظر لشيماء التي كاد البكاء يشطرها وقد ألصقت ظهرها بباب الغرفة، الذي أغلقته على نفسها بعيداً عن الطفلين. سالت دمعة عصية من عينه وهو ينظر لذبيحته. مرت دقائق كثيرة دون كلمة واحدة. تمكن أحدهما أخيراً من الكلام..

- سامحيني!
- طلقني.
- انتي بتقولي ايه؟!
- انت كنت منتظر مني إيه لما تقوللي اعتراف زي دا؟

لم يجد رداً.. ماذا كان ينتظر فعلاً؟

نظر لها مطولاً .. ينظر للحب، للسنوات الجافة المتشققة التي مرت بهما. للفتاة الجميلة التي حسده الجميع عليها كيف فعل بها؟!

مازال يرغب بفرصة أخرى. مازال يريدها في حياته، حتى وهي متباعدة كثيرة الشكاية. أحبها بكل عيوبها ولا يريد حياته خالية منها مهما طغت هذه العيوب على الاحتمال.

– مش هقدر يا شيماء .. أنا ...

انفجرت المسكينة تقاطعه، وتلقي في وجهه بكل أثقالها:

- قدرت...قدرت تبوس واحدة غيري .. تحضن واحدة غيري .. تنام في سرير واحدة غيري... الموضوع طلع أسهل مما تخيلت!

- اصبري يا شيماء، والله العظيم غصب عني، تعبت وضعفت.

- انت عارف وانت نايم مستمتع مع صاحبتك انا باعمل ايه هنا؟ عارف اني بنام اربع ساعات في اليوم؟ بنزل اشيل عيالي أوديهم لماما وألف بين شغلي والجامعة لغاية العصر؟ عارف اني بتخانق مع بابا كل يوم تقريبا عشان يروحني انا وعيالي واعرف اخلص اللي ورايا ؟ عارف الجحيم اللي انا عايشة فيه لوحدي من ساعة ما سافرت؟ لا.. من ساعة ما اتجوزنا!

- شيماء اديني فرصة.. أنا اعترفتلك لأني ندمت، أنا لسة بحبك.. مهما زعلنا من بعض ما تهدميش كل حاجة كدة في لحظة.

تركته يحترق بصمتها للحظات، قبل تصب المزيد من الحميم على مسامعه:

- انت عارف انا عاوزة ايه دلوقت؟ أنا عاوزة أموت .. عاوزة أدخل سريري وما اصحاش.. لولا خايفة على عيالي

كنت دعيت ربنا بيها فعلاً.. مين هيراعيهم ؟ مين هيستحملهم ؟ من ساعة ما جم للدنيا وأنا بس اللي شايلاهم .. أنا بس .. لوحدي ..

انت سافر، واعمل مستقبلك .. وانبسط ..وصاحب واحدة واتنين وعشرة .. ومالكش دعوة بيا .. زي ما كنت من ساعة ماتجوزنا.. كلمة الطلاق مش فارقة حاجة. مجرد كلمة.. مجرد عنوان للقصة، مش هيقدم ولا هيأخر.

اخترقه كلامها المر كأسياخ الصلب. دموعها الحارقة أضافت لكل كلمة ملحا وعلقماً؛ فألهبت جروح نفسه وصدعت أركانه. نظر لها يملأ عينيه بنظرة وداع، ثم قال:

- انتي طالق.

**

شيماء تطرق باب بيت أبيها معها الصغيران وحقيبة كبيرة تدرج على عجلات، وتحت عينيها هالات من الأحزان وانكسار القلب. فتحت شروق الباب، وهالها منظر أختها التي لا تتكلم. دخلت الطفلة أم الأطفال، وانفردت بوالدتها في غرفتها القديمة تحكي لها ما حدث، فخرجت الأم غاضبة تغلي، وترفع صوتها تسب الرجل المغترب. الحاج حسن كان عائدا من الخارج، وتفاجأ بالصغار وبالحقيبة، ثم بصياح زوجه. أسرع في أخذ امرأته من يدها بعيداً عن شروق الصغيرة والولدين. أي صغيرة؟!فتاة الثانوية الآن تفهم كل شيء. شعرت بالرعب مما تسمع، دخلت لأختها وأسرعت تضمها وهي تبكي. تفقد شروق ذات القلب الأخضر الصغير إيمانها بالحب في ثانية، فقد كانت قصة شيماء و أحمد تثير غبطتها، وتهيج أخيلتها اليافعة. طالما انتظرت أن تتذوق الحب مثل أختها، واليوم تسمعهم يتحدثون عن الخيانة، وترى أختها الذابلة

كسيرة القلب تعود للبيت حاملة هزائمها. ضمت أختها دون كلام؛ إن الأحضان توفر الكثير جداً من الحكي.

جعلت الأم ترغي وتزبد في غرفتها المغلقة، وزوجها يستمع وهو مصدوم لا يملك رداً. يعرف زوج ابنته كما يعرف كف يده، لطالما كان الشاب مهذباً ذا دين. قال محاولاً السيطرة على صوته:

- اهدي يا ام شيماء .. أنا هكلمه أفهم منه.
- تفهم إيه؟! بتقول لك هو اللي اعترف لها! والله العظيم ل....

قاطعها الرجل:

- بس يام شيماء.. ماتفضليش تزعقي.. لازم نسمع الطرفين

لم تفلح حكمته في تهدئة الأم الغاضبة، فتكلم بحزم مخيف هذه المرة:

- قسماً بالله لو كلمة طلعت يا ام شيماء برة الاوضة دي ما هيحصل طيب .. انتي فاهمة؟

ابتلعت المرأة غيظها، وذهبت تحاول الانشغال بالصغار، واتجه حسن إلى غرفة صغيرته. كانت تبكي بمرارة أوجعته، وتمنى لو رأى أحمد أمامه ليوسعه ضرباً.

مازالت طفلته المدللة. مازالت الصغيرة التي رغم شدته لا يحتمل أن تمسها شوكة. طلب من شروق المغادرة، وكانت الأخرى قد أخذت نصيبها من البكاء أيضاً. قال بعطف وهو يأخذ بكتفيها:

- اهدي يا بنتي .. اهدي بالله!
- .....

- قوليلي هو فعلا أحمد قاللك انه .....؟

هزت رأسها المثقل بالدموع وهي تخرج المحمول من حقيبتها وتفتحه، لا تكاد ترى موضع أصابعها بسبب عيونها المتورمة. نظر الأب للرسالة الشديدة الاختصار بوجع. عاد يسأل:

- هو انتي قلتيله انك سايبة البيت؟
- أحمد طلقني يا بابا.

تراجع الأب مصعوقاً. أخذ يذكر الله محاولاً تهدئة فاجعة قلبه.

- يعني مش كفاية خانك كمان ... ؟

قاطعته شيماء بتهدج:

- أنا اللي طلبت يا بابا ..

أنفاس الأب ملتهبة تفوح بالغضب. قال بعد برهة من التفكير:

- شيماء .. أنا عارف ان قلبك مكسور ..ومش هكلمك في أي حاجة دلوقت. استهدي بالله يا بنتي ولادك عاوزينك، وبيتفزعوا لما بيلاقوكي بتعيطي.

ارتمت شيماء في حضن والدها، الذي أخذ يربت على رأسها بحنان. فتحت أم شيماء الباب تنظر لابنتها المنهارة. سالت دمعة على خدها هي الأخرى وتسلمت مكان الأب، الذي نهض مغتاظاً وقال بحزم:

- شيماء أنا قلت لأمك مفيش بني آم يعرف حاجة عن الموضوع دا.. وخلوا بالكم من الكلام قصاد شروق، وقصاد زياد كمان. وأنا هاكلم أحمد أشوف حكايته إيه.
- يا بابا أنا عمري ما ...

- أنا كلامي واضح.. ما بنتكلمش عن مسامحة ولا غيره دلوقت.

**

أعد صالح مائدة الإفطار مع حماته في شقتها التي استأجرها لها. رغم تظاهره بالمرح إلا ان عينيه كانتا تخفيان هماً عظيماً. تركته حتى تناول إفطاره ثم قالت :

- مالك يا صالح يابني؟
- هاقوللك ايه بس يا أم سمية .. مانتي شايفة.
- استغفر الله يابني .. دا قضاء ربنا لازم نرضى بيه.. انت تزعل لو في ايدك حاجة وماعملتهاش.
- أنا حاسس الدنيا اتقفلت في وشي. أنا ماشفتش خير من ساعة أما أمي ماتت.
- الله يرحمها .. ماتزعلش مني يابني، بس دا كلام مش صح.

رفع عينيه إلى المرأة العجوز فاستأنفت:

- نعم ربنا مغرقاك يا بني .. كفاية معاك فلوسك مش محتاج لحد .. كفاية انت بخير وولادك بخير، مفيش حد تعبان ولا دخل مستشفى.. انت شفت والدتك وقالتلك أنا راضية عنك .. في غيرك أمه ماتت وهو محجوز في الغربة معرفش يودعها.

لم يحر رداً. هذه المرأة محدودة التعليم واسعة الإيمان دوماً تدهشه. صمت في حرمها تماماً ينتظر منها المزيد. أكملت:

- البلاء ما يترفعش الا اما نرضى بيه يا صالح. لازم تفكر ربنا عمل معاك كدة ليه. افهم حكمته وارضى بأفعاله حتى لو ما فهمتش..هتلاقيه فتح عليك من وسع.

- بس يا حماتي ...أنا خايف .. إقامتي هتخلص .. انتي عارفة احنا عملنا ايه عشان نسافر. عمر بحاله واحنا هناك، رزقنا، ومدارس عيالنا، وجيراننا، وصحابنا.

- رب مصر هو رب الكويت، ولو مكتوبلك لقمة هتطعمها لو كنت فين .

كل كلامها صحيح. وأبسط دليل هو ما فعلته زوجه في الكويت، فبينما ظن هو أن الرزق انقطع فتح الله لها باباً لم تعمل له أي حساب.

قال ممازحاً وهو يفتح المحمول يعرض صور الأطعمة التي أعدتها سمية للبيع:

- شفتي بنتك؟ زحلقتني من الكويت واشتغلت هي الله ينور !

نظرت أم سمية للصور وهي تتمتم بالصلاة على النبي، وأخذت تدعو لها و لزوجها وأولادها بالبركة.

غادر صالح منزل حماته بعد العشاء يتجنب ساعات الحظر الذي لا يلتزم به أحد! سار في الطرقات على قدميه يحاول تنظيم أفكاره. أم سمية تقول إن البلاء لا يُرفع حتى يرضى به. مازال شاقاً عليه تقبل فكرة أن رزقه بالكويت قد انقطع، وأنه قد يعود مع أولاده يعيش في هذه المخاضة الزلقة شحيحة الرزق.

**

وقفت شروق تنتظر أباها أمام مركز الدروس مع إيمان صديقتها المقربة. إيمان هي ابنة خالة أحمد، وأخت إيمان هي زوجة أخيه، وهي شاهدة من شهود قصة الحب الملحمية التي كانت بينهما. شروق تحاول تجنبها دون فائدة، والفتاة الأخرى تحس بأن شيئاً غير طبيعي يحدث. شروق حزينة لحزن أختها، وتشعر أنها تكره أحمد وكل ما يمت له بصلة.

و كالدبور يتلهف لخراب عشه، أخذت تلح عليها لتبوح بما تكتمه. شروق كانت هشة للغاية وسرعان ما باحت بطلاق شيماء من أحمد.

- انتي بتقولي ايه يا شروق؟ مستحيل!
- لا حصل.
- و ازاي ماحدش عرف؟
- معرفش بقى .. أصلا بابا حالف علينا مانقولش حاجة يمكن يصالحهم.
- انا مش مصدقة!

زفرت شروق بضيق و لم تلبث أن ألقت بالسر الذي يحرق لسانها. همست في غيظ:

- قريبك يا ست هانم كان بيخون أختي.

**

" أحمد طلق شيماء يا بابا"

نظر الحاج عبد الله مذهولاً لولده عصام، الذي قال الجملة بأسف شديد أمام والده. سأل الأب بدهشة:

- انت عرفت منين الكلام دا؟! .. ماحدش جاب لي سيرة من عيلة شيماء.

تردد عصام؛ الصراحة والكتمان في حرم أبيه مؤذيان سواء بسواء. قال:

- مراتي عرفت من اختها اللي مع شروق في الدرس.

بدأت سحابة غضب عاصف تتكون في وجه والده.

- و المفروض مراتك تعرف اللي احنا ما نعرفوش ؟

- أصل يا بابا .. أنا مش عارف اقوللك ايه بس!

- أنا هكلم الحاج حسن استفهم منه..

- لا لا .. استنى يا بابا .. الموضوع حساس شوية بلاش تكلمه

صاح أبوه غاضباً:

- ما تنطق يا واد .. ايه اللي حصل بالضبط؟

أطرق عصام وهو يقول في ضيق:

- مراتي قالتلي إن أحمد عمل علاقة مع واحدة مش تمام. الظاهر الموضوع كان كبير قوي، و شيماء عرفت وطلبت الطلاق فقام مطلقها.

- أحمد ابني؟!!

كان الشيخ مصعوقاً. كانت تصرفات أحمد مخالفة أحياناً لما كان يتمناه، ولكنه كان أشد أولاده تهذيباً. لم يكن راضياً عن حبه لشيماء، ولم يكن مرتاحاً لزواجه منها، وتسبب هذا في تعطيل ارتباطهما لأكثر من سنة. ورغم كل هذا كان على دين يشيد به الجميع، وفي ذروة علاقته بشيماء لم يخالف ربه، ولم يخالف أباه. كيف انتكس بهذه السرعة؟ ويصل الأمر للزنا ؟!

اعترف الشيخ بينه و بين نفسه أن الانتكاس ليس صعباً لهذه الدرجة. على مدار سني عمره رأي الكثيرين يتساقطون عن صراط الله بعد أن ثبتوا أقدامهم فيه لفترات طويلة. رجل في قمة شبابه، وحيد في الغربة، لا أحد يمنعه عن فعل شيء مهما كان فاحشاً، لماذا يتعجب من انتكاسه؟

قال الشيخ بغضب مكتوم:

- اطلبلي أخوك دلوقت.

نفذ عصام أمر أبيه، سلم باقتضاب وأعطى الهاتف للشيخ الذي قال بلهجة مخيفة:

- صحيح اللي سمعته يا احمد ؟
- سمعت إيه يا بابا؟
- إنت طلقت مراتك؟
- حصل يا بابا.
- و هو انت ما لكش أهل ترجعلهم؟ ما لكش كبير ؟
- سامحني يا بابا.. مقامك فوق راسي طبعاً.
- و صح اللي حصل دا و سمعته ؟

صمت أحمد منكسراً. لم ينتظر من شيماء أن تفضحه عند أهله. قاطع الصمت صياح أبيه الغاضب:

- زنا يا احمد؟ زنا ؟ ابن الشيخ يعمل الفاحشة؟ على طول وقعت ؟ دانت ملحقتش!

أوغل الشيخ عبد الله في إهانة ولده. الإهانات في هذا الموضوع الشائك موجعة وتفتت الكبرياء تفتيتاً. لم يغلق أحمد الخط، وتجرع إهاناته كاملة، والدموع الساخنة تكوي عينه ولا

تنسال لتهدئ من سخونتها. حاول عصام تهدئة أبيه الذي يرغي و يزبد لاهثاً في غضب كاسح. لم يفلح في إسكاته بينما يهتف:

- وفي رمضان يا فاجر ؟ أنا متبري منك .. مش عاوز اسمع صوتك النجس دا تاني ..و لا تعتب بيتي ولا تيجي مصر كلها من أصله.

قالها، وألقى الهاتف لعصام ودخل لغرفته، وهو مازال ينثر غضبه ولعناته يمنة و يسرة. قال عصام بصوت فيه نبرة عطف مخفضاً صوته:

- ليه كدة يا احمد؟

لم يجب الفتى إلا بصوت أنفاسه المحترقة. استأنف عصام:

- استغفر ربك يا احمد و سيب الزفتة دي ..انت ..

قاطعه أحمد قائلاً في دهشة:

- أسيب ايه يا عصام .. دا هي مرة واحدة اللي ضعفت وماتكررتش .. دا أنا حتى مش فاكر اسمها ايه.

عقد عصام حاجبيه، لقد أضيفت الكثير من التوابل للقصة على ما يبدو.

- أمال شيماء عرفت ازاي؟
- انا اعترفت لها.
- غلطان.
- ماقدرتش.
- مادام ربنا سترك كنت استغفرت وتبت.
- اللي حصل حصل يا عصام.. الدنيا اتطربقت فوق دماغي وخلاص.

- أنا هقفل دلوقت؛ أحسن ابوك يجراله حاجة.
- ماشي .. ابقى طمني.

**

" انتو مفيش فايدة فيكم .. مفيش أي تحمل للمسئولية ... أنا لو باتعامل مع أطفال كانوا هيتصرفوا أحسن من كده"

كان أبو شيماء يصيح في غضب شديد بعد ما اتصل به الشيخ عبد الله يعتذر عن حماقة ولده، ويعده بألا يظلم شيماء، وأن تظل العلاقة بينهما جيدة، ويمكن للولدين أن يزورا جدهما في أي وقت دون حرج.

لم يستطع الحاج حسن الرد على نسيبه. لقد ذاعت قصة أحمد و شيماء في العائلتين، وأضيف لها من التوابل والمنكهات ما أضيف. الشيخ عبد الله يتحدث عن "أحمد" مارق فاجر متعدد العلاقات النسائية كشفته زوجته لكثرة ما افتضح أمره، وطلبت الطلاق فألقاها خلفه هي والأولاد، وراح يعربد وحده بحرية في بلاد الغربة، بينما الحاج حسن وحده يعرف الحقيقة التي تبعد كثيراً عن هذا الكلام وقد سمع الحقيقة كاملة من أحمد بنفسه.

انكمشت شروق في رعب وهي تعرف أن تلك الحمقاء إيمان لا ينغلق فمها على سر، وأنها هي -شروق- سبب خروج مشكلة أختها عن السيطرة.

قالت الأم في ضيق :

- وانت إيه اللي مزعلك؟ واحد غلط و ربنا فضحه.. يستاهل.

كان الرجل يشتعل بالغضب، وفضل دخول غرفته قبل أن يسيء لزوجته بلفظ غير لائق أمام ابنتيه. لحقته زوجته للغرفة، وهي تقول :

- بجد مش فاهمة ايه اللي مزعلك كدة؟!

- يا ستي الواد اعترفلها، وطلب منها تسامحه، يعني دي كانت غلطة واحدة. كان ممكن بعد شوية وقت طول أو قصر تسامحه، ويصلحوا علاقتهم. دلوقت قوليلي هنلم اللي حصل دا ازاي؟ ولا انتي هتفرحي بقعدة بنتك جنبك؟

- تقعد جنبي معززة مكرمة، و لا إنها تعيش مع واحد بيخونها..مادام عملها مرة هيعملها تاني.

- واما هو عاوز يعملها تاني يا ام الذكاء كان قاللها ليه؟ لو عاش هناك بالطول وبالعرض ولا حد كان هيعرف.

- ولو ...

زفر في وجهها بلهبه وقال :

- اسكتي خالص.. انتي ولا قد الكلام اللي عمالة تقوليه. بنتك بتحب جوزها وقلبها مكسور، وهتقعد جنبك تتفرجي عليها وهي بتدبل، بدل ما كانوا يصلحوا أمورهم ويتصافوا مع بعض. انتي فاكراها بنت الجامعة اللي هترميله الدبلة وخلصنا ؟ دي أم لطفلين.

انخفض صوته قليلاً وهو يقول بأسف:

- الله يسامحك.. انتي اللي عودتيها كل مشاكلها تجيبها عندك في البيت هنا، بدل ما تتصرف وتحلها لوحدها.

وصل كلام الأب الغاضب لمسامع شيماء وشروق. كان زياد خائفاً وقلقاً من غضب جده الذي لم يره هكذا من قبل. ضمته أمه

وهي تحاول أن تشغله عن الحديث الغاضب بالداخل. شيماء تعترف بأن أباها محق. تعرف أن الأمر كان من الممكن السيطرة عليه وحصره. غضبها وأحمالها الثقيلة التي لم تُعَد لحملها جعلوها تنهار، وتغادر البيت وتخبر الجميع بما فُعل بقلبها.

إنها اليوم ربما على استعداد للتفكير بمسامحة أحمد، الفكرة التي كانت مستحيلة تماما منذ أسبوعين. وكيف ستسامح الآن، كيف يمكن لملمة ما تناثر من أسرارها وباتت العائلتان تلوكه وتتناقله، وقد وجد كل حاسد لهما فرصةً - أخيراً- لشفاء صدره.

قاطع سيل أفكارها صوت شروق الجالسة جوارها تتكلم وبصوت باكٍ:

- سامحيني يا شيماء .. أنا اللي طلعت السر.

ربتت على يدها وقالت:

- خلاص يا شروق، اللي حصل حصل، مفيش في إيدنا حاجة.

- سامحيه يا شيماء.. أحمد بيحبك.

نظرت لأختها الصغيرة بدهشة، ثم قالت محاولة التهرب:

- مالكيش دعوة انتي يا شروق، انتي لسة صغيرة.

قالت الفتاة ذات السابعة عشرة:

- يا شيماء انتي عاوزة ترجعي تاني ماما تتحكم فيكي وبابا يزعقلك ؟ بعد ما كنتي ملكة نفسك ترجعي تاني يقولولك اعملي وما تعمليش ؟!

رغم أن الفتاة الصغيرة تتكلم بوجهة نظرها البريئة للحياة، إلا أن كلامها بدا صحيحاً.. صحيحاً لدرجة مقلقة!

**

تابعت سمية و الأولاد أنباء الحظر الكلي الذي سيبدأ بعد يومين. منع تام للتجول مما يعني أن مشروعها الصغير قد تعطل. نظر لها محمد وقال:

- هنعمل ايه يا ماما؟ التلاجة مليانة ولو ما وزعناش الأكل دا كله ممكن يبوظ! كدة ولا حد هيعرف يجيلنا ولا في ديليفري.

جلست تفكر في صمت و الأولاد يتابعونها. رغم الإحباط كانت سمية سعيدة بصغارها الذين كبروا قبل أوانهم. حريصون على مشروعهم الصغير ويفكرون في حلول، بينما يقضي أولاد الجيران نهارهم في السرير وليلهم في فلك الاجهزة اللوحية منعزلين عن أهلهم وعن العالم.

قالت منة ذات الإحدى عشرة سنة:

- أنا باقول نعمل الأكل ونوزعه على الجيران، والباقي ناكله احنا وخلاص.

قال عمر الصغير:

- أيوة فكرة حلوة.

أيدته أمه بحماس:

- برافو يا منة .. فكرة حلوة فعلاً

قال محمد متسائلا:

- هتبيعي الأكل للجيران يا ماما؟

أجابت سمية بحزم:

- لا يا محمد .. احنا هنوزعه عليهم من غير فلوس. مش هاخد فلوس من جيراني. وبعدين هما ما طلبوش الأكل هبيعهولهم غصب عنهم؟

قال محمد بإحباط:

- يعني كدة خلاص الفلوس راحت علينا المرة دي!

لمعت عين سمية وقالت:

- مين قال كدة؟ بالعكس ..المرة دي هتكون أكتر مرة كسبنا فيها؛ لأننا هنبيع الأكل لله!

نظر لها الأولاد بتعجب وفضول، فأكملت:

- ربنا بيقول " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة". احنا المرة دي هنبيع شغلنا لله، والتمن أكبر بكتير من اللي كنا بناخده قبل كدة.

كان الصغار محبطين ولم يبدوا سعادة كبيرة. أمها دوماً كانت تقول هذه الآية كلما رأتها سمية تتصدق ببعض ثيابها، أو بطبق طعام للجارة العجوز الوحيدة، أو مال لأي طارق يطرق بابها، فإن لم تجد مالاً أعطت أي شيء حتى ولو زجاجة ماء. ابتسمت وهي تشعر أن الزمن يعيد نفسه، فحينها كانت تتذمر أيضاً، وتخاف أن تبوح بأنها تريد الثمن اليوم وليس يوم القيامة. وبعدما كبرت أدركت أن ثمن تلك الصدقات أغلى كثيراً من المال، بل هو أشياء لا يستطيع مال العالم شراءها. الثمن بركة في الرزق فيكفيهم في شهر ما لا يكفي غيرهم في أسبوع، والحذاء الذي يفترض أن يُلبس عاماً يكفي لعامين دون ثقوب. بركة في الأولاد فيمنع عن هذا صاحباً سيئاً، ويمنع عن هذه سقطة كادت تشج رأسها. بركة في الزوج فتمر أمامه

النساء بزينتهن الثقيلة ووجوههن التي تخمت بعمليات التجميل، ولا تعجبه إلا الشرقاوية السمراء أم العيال.

قالت الأم لأولادها بلهجة فيها امتنان:

- مين اللي رزقنا بالشغل دا يا ولاد؟ تخيلوا لو ما كانش ربنا يسر لنا الشغل دا كان زماننا قاعدين من غير فلوس، وعمالين نخلص في فلوس بابا وهو راتبه واقف ومفيش أي دخل. ربنا رزقنا بالفكرة،وربنا اللي خلا أكلنا يعجب الناس. مفيهاش حاجة لما نشكر لربنا نعمته ونوزع الأكل المرة دي ببلاش، وأنا متأكدة إنه هيرزقنا.

**

جلس أحمد أرضاً في ركن شقته يقرأ من المصحف. لحيته نمت فأخفت وجهه الذي ازداد نحولاً. كان هادئ القلب رغم أن حياته تبدو كمدينة قصفت بقنبلة ذرية.

زوجته -أو بالأحرى طليقته- قطعت الاتصال به تماماً. يتصل بوالدها – الوحيد الذي يتعامل معه بشيء من الرحمة- ليطمئن على الولدين ويكلمهما، إن تمكن من اختلاس دقائق دون علم الجدة الغاضبة. والده لا يرد على مكالماته. منذ شاعت فضيحته والأسرة تقاطعه. فقط بعض المراسلات السرية بينه وبين أخيه عصام.

نَقُص المرتب بسبب ظروف الوباء وتوقُف العمل. ثم بفرض حظر التجول التام أغلقت محال البقالة والشراء أصبح عبر الشبكة فقط وباستخدام بطاقات الائتمان أو بحجز موعد للذهاب للسوق عن طريق الرقم المدني. ولم يكن لديه لا رقم مدني ، ولا بطاقة ائتمان. كان يعلم أنه ليس الأسوأ حالاً؛ فمئات طردوا من أعمالهم وانقطعت

رواتبهم . هواء الكويت البارد الذي - لم يخبره أحد عنه - يعبق بالكآبة و الخوف و هموم المساكين.

إن دروساً وعظاتٍ لم يفهمها في حياته إلا في هذه الأيام. لأول مرة يفهم معنى (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل). أن يشتري الضروري فقط ، ألا يتعامل مع البيت على أنه بيته، و ألا يعتبر أنه سيبقى هنا للأبد، أن يعلم أنه راحلٌ لا محالة إلى بيت آخر، أو إلى عالم آخر.

تعلم أن يحترم النعمة إلى أقصى حد، فبينما أُغلقت الأبواب و المحال التجارية كان يتربى على أن يأكل المتاح دون تذمر. ليس من الضروري وجود مشروب محلى قبل الإفطار، ولا حلوى غارقة في السمن والعسل بعد الإفطار.

عرف إحساس من ينفد الطعام من ثلاجته، إن كان عنده ثلاجة . عرف قيمة "الخبز"، و"الفول"، و"العدس" حينما خلت الثلاجة من أصناف الجبن، وأصناف الفواكه و الحلويات. جرب أن يعيش وعلبة القهوة خالية، والباقي من عبوة السكر يكفي لكوب شاي أو كوبين مع بعض الاقتصاد.

عرف إحساس الجوع، واكتشف أنه – ياللعجب – لم يجربه منذ زمن! اكتشف أن مساحة (الضروري) ضيقة جداً، وأن هامش (الرفاهية) أكبر مما يتوقع. و اكتشف أن "الرفاهية" - رغم خفة حروفها - أثقل من حجر احتضنته، وقفزت به إلى البحر، وأنك حين تكتفي بالضروري تصبح شفافاً تعبر خلالك نفحات الله تعالى، ترى بعضاً من حكمته، تفهم من القرآن ما كان مستغلقاً عليك من قبل، تشعر بحجمك الحقيقي بعد ما تجردت من كل ما كنت تظنه من حقك، وما كان يوهمك أنك كبير، وقوي، وقادر على الاستغناء.

تعرف حجم الدنيا الحقيقي. تفهم ما معنى (جناح بعوضة)، وتدرك أن الناس يتقاتلون على مثل ما يعلق بأصبعك إذا غمرته في الماء.

كان مسموحاً بالتجول لأربعة ساعات فقط يومياً ، فكان ينزل يتمشى بقرب ساحل الخليج يبوح بسره للبحر الساكن، يترك عينيه تهدآن على أزرقه. يشتاق لمصر ولبحر الإسكندرية. موجه العاتي يشعرك أنك تقف بصدد كائن حي يسمع كلامك ويرد عليك. أما هذه الموجات الخافتة اللطيفة فلا تروي ظمأه.

كان أحمد قد تعرف على بعض الزملاء في الكويت. عندما جرب أن يطلب من أحدهم شراء بعض الطلبات له كان يرفض تقاضي الثمن، وهذا كان يزعجه بشكل مبالغ فيه. إنكسار نفسه، وظهوره بمظهر البائس الفقير المثير للشفقة كان يقتله قتلاً ، وهو بغنى عن جرح كرامته أكثر مما هي مجروحة بالفعل.

بعد كثير من التردد اتصل بالشخص الوحيد الذي لن يعطيه شيئاً " لله" ! وبالفعل أمر الكفيل مندوبه إبراهيم بقضاء متطلبات الطبيب الشاب و" محاسبته"، إذ إن إبراهيم بسبب عمله في المستشفى يملك تصريحاً للسير في أوقات الحظر.

لم يكن الشراء في جميع الأحوال سهلاً جداً، والسلع كان تستنفذ أولاً بأول وكأن الشعب مقبل على مجاعة، ولكن على الأقل استطاع أحمد الحصول على بعض الخبز وعلبة كبيرة من الجبن تكفيه إفطار و سحور بقية الشهر، على أمل أن تنفرج الغمة قليلاً بعد العيد..

.....

**

.....

فتح إبراهيم ثلاجته يفكر فيما سيحضره للإفطار فسمع طرقات على الباب. تعجب لأنه لم يعتد زيارة من أحد. عازب رحالة لا يحمل هم أحد، ولا هم شيء. وبالمثل لا يتعشم بأحد، ولا ينتظر شيئاً من أحد. يعرف أهدافه جيداً، فحيثما يكون المال يكون هو. فتح الباب فوجد شاباً صغيراً وفتاة أخرى أصغر تقف إلى جواره، يلبسان الكمامات والقفازات ويحملان أكياساً كبيرة. تكلم الشاب قائلاً:

- سلام عليكم، انا محمد صالح جاركم
- ابن الأستاذ صالح ؟ يا هلا

- هلا فيك .. كل سنة و حضرتك طيب .. دي هدية بسيطة.

تسلم الكيس في عجب، وقد بدأت الروائح الشهية تتسلل خارجه. تسائل وقد بدت عليه أمارات الفرح بالرزق غير المتوقع :

- وانت طيب يا محمد .. إيه دا؟!
- دا أكل بيتي، عمايل والدتي.

قالت منة باندفاع:

- ماتخافش يا عمو حاجتنا نظيفة، وماما أكلها حلو أوي.

رمقها محمد بنظرة غاضبة، فبادلته بمثلها. التمعت عينا إبراهيم وهو يقول:

- يعني والدتك كانت بتعمل أكل وتبيع؟
- أيوة.
- طيب و الأكل دا تمنه كام؟

- لا يا عمو دا هدية من غير فلوس، احنا هنمشي بقى عشان لسة لازم ندي بقية الجيران.

- استنى بس يابو حميد.. عاوز أفهم.. انتو بتبيعوا ازاي دلوقت؟

اندفعت منة مندوبة التسويق الصغيرة:

- يا عمو احنا كنا بنبيع للكويت كلها، بس الحظر وقف الدنيا.

حك إبراهيم ذقنه بتفكير. البقاء وحده في الغربة علمه تشمم رائحة الفرص عن بعد، قال:

- طيب أنا عاوز رقم والدتك يا محمد .. أنا معايا ترخيص وممكن أساعدكم في توصيل الطلبات.

اتسعت عينا محمد بسعادة ودهشة. الآن فقط فهم الشاب اليافع ما قالته والدته عن شراء الله تعالى لهذه الأطعمة. أسرع يعطي رقم الهاتف لإبراهيم الذي قال:

- أنا عاوز وجبة كمان عشان واحد صاحبي.

ناوله الشاب الصغير كيساً آخر من حمولته. قال إبراهيم:

- أنا خدت هديتي خلاص، هدفعلكم ثمن الوجبة دي.

قال محمد وهو يشير بأصبعه للسماء كما تفعل والدته:

- لا يا عمو احنا خدنا تمن الحاجات دي من ربنا.

استأذن الصغيران وهو يتابعهما متعجباً. إن شاباً تربى على الإيمان أصبح نادر الوجود في هذا الزمن. انتبه من شروده، وأسرع يتصل بأحمد قبل أن يقترب المغرب، يقول بحماس:

- أنا جايلك يا دكتور افطر معاك، عندك مانع؟ ربنا رزقنا حبة محشي إيه.. رزق العزابي!

**

شيماء كمن أفلت عجلة القيادة في الطريق السريعة. الصغيران ينامان بالنهار ويسهران ليلاً، وهي تسهر ليلاً معهما وتذهب للعمل نهاراً. طفلاها يسببان الفوضى لها، ولوالديها، ولشروق طالبة الثانوية العامة التي توقفت دروسها وأصبحت مطالبة بالاعتماد على نفسها كليا.

جلست شيماء تنظر لأحوالها المؤسفة. مهما كان يبلغ بها الضيق في بيت زوجها لم يصل بها لهذا الحد. صدَقت شروق في كل كلمة، كانت ملكة نفسها، تربي أولادها بالشكل الذي تريده، حازمة معهما ، ويطيعانها ويسيران حسب نظامها، وهذا كان مريحاً للجميع، بينما تدليل الجدين جنباً إلى جنب مع عشقهما للنظام يدفعانها إلى حافة الجنون.

زوجها ... و أين هو زوجها؟ كل ليلة تفكر به، تستعيد ذكرياتهما معاً، تتخيله يعود، يطرق باب أبيها ويخبره بأنه يريدها، وأنه يحبها، ويأخذها لبيتها. كبرياؤها وعنادها يتشاجران مع أفكارها العاطفية نحوه.

تحدثها نفسها كل ليلة بالاتصال به، ببث شكواها ووحدتها. التعليقات الجارحة الصغيرة تتمدد، وتتضخم، وتجثم على أنفاسها. حين تبدي حزناً تسمع من أمها تلميحات جارحة عن أن هذا الزواج كان اختيارها هي. وحين تبدي تبرماً من ضيق صدر أبيها تسمع منه تلميحات أخرى بأن الطلاق كان اختيارها هي. هي الملومة دائماً وأبداً.

مازالت تذهب للعمل يومياً في ذروة وباء الكورونا. تعود للمنزل ترش كل ما يمكن رشه بالكحول، من كفيها المتشققتين من قسوة المطهرات إلى ثيابها ، ثم تدخل من باب المنزل إلى الحمام فوراً فتخلع جميع ثيابها، وتلقي بها إلى فم الغسالة، وتحك جلدها بالصابون حتى تكاد تذوب.

في ذلك اليوم شعرت بالصداع وهي جالسة على مكتبها في الوحدة الصحية. أسندت رأسها إلى كفها، فهيئ لها أن رأسها ساخن.

ارتعبت شيماء، وأسرعت تضع ميزان الحرارة. حرارتها تسعة و ثلاثون درجة. لم تصدق، وجعلت تتأكد من زميلاتها أن القراءة صحيحة.

ساقاها لا تحملانها.. غادرت الوحدة الصحية فوراً، وقد أبلغتهم بمرضها، وسارت في الطرقات لا تدري ماذا تفعل. كيف تعود للبيت الذي يحوي كل أحبابها وهي مشتبه بإصابتها بالوباء. تدعو الله ألا تكون قد أصابت أحد والديها أو أختها أو طفليها.

على الفور أتتها فكرة الذهاب لشقتها.. شقة الزوجية. الشقة كانت قريبة من مكان العمل فظلت سائرة لنصف ساعة، وقد أنهكتها الحرارة و بدأ حلقها بالجفاف، وكأنه كان ينتظر أن يؤكد له أحد الإصابة. لم تعد تميز بين الأعراض الحقيقية والتهيؤات.

فتحت باب الشقة ودلفت. ملأت عينيها من منزلها الحبيب.. كيف تخلت عنه؟! كيف تركته بعد أن اختارت مع حبيبها كل ركن فيه؟ ورغم ما بها من آلام تذكرت ليلة زفافها، حين خطت لهذه الصالة بثوب زفافها الجميل. حين ضمها أحمد هنا لأول مرة. تذكرت حين كان جالساً هنا على مقعده المفضل أمام التلفاز فجاءته من خلفه تريه شريط اختبار الحمل. حين تحول حبهما لإنسان لطيف صغير له عينان سوداوان فاحمتان كعيني أبيه، وخدان ورديان

يغريان بالتقبيل. وتذكرت حين ضمها لآخر مرة وقد حُزمت الحقائب وتراكمت فوق بعضها أمام الباب .جلست على مقعد زوجها المفضل وكأنها ستلمس جلده الذي تشتاقه. تنهدت، وأجبرت نفسها على العودة من سماء الذكريات إلى أرض الواقع. اتصلت بأبيها ولما تعدَّ بعد كلمات تخفف بها الصدمة عليه. " بابا.. أنا حرارتي عليت النهاردة .. شكلي خدت الكورونا"

**

ابتاع أبو شيماء كميات من المواد الغذائية والأدوية والملابس التي طلبتها ابنته، وتركها عند باب شقتها ورحل متألماً. دوماً كان يشاهد الأخبار على شاشة التليفزيون أو على صفحات التواصل، ولم يتخيل أنه سيكون يوماً جزءًا من هذه الأخبار.

عاد للبيت وأم شيماء تبكي بحرارة وهي تردد :

- إيه اللي صابك يا بنتي؟ .. استغفر الله اللهم لا اعتراض على حكمك!
- متخافيش يا نادية، بنتك كويسة.

رفعت عينيها إليه بأمل، فهز رأسه إجابة على سؤال لم تسأله. لم يخبرها أنه لم ير طفلته أصلاً، وأن قلبه فزع عليها مثلها تماماً.

في المساء، شيماء كانت نائمة في غرفة نومها وعظامها تنطحن ألماً. حتى الفراش اللين كان يؤلمها. لم تأكل طعاماً منذ يومين كاملين. معدتها تطرد حتى الماء الزلال. زملاؤها يتابعون الاتصال بها وهي عاجزة عن الرد.

كل ما كان يخيف شيماء أن يضيق نفسها، وأن تحتاج للعناية المركزة والأنبوبة الحنجرية. الوضع مزرٍ في مصر، والطبيب الذي يصاب لا بواكي له.

رمضان الكورونا هو الأكثر مشقة عليها وعلى أسرتها. تحدث نفسها أنه لا فائدة من البكاء، وأن محبسها هنا بعيداً عن أولادها قد يكون سبباً في خير كثير لها فيما بعد. حدثت نفسها أن الله كان يعلم كل ما سيحدث وأن الذي هي فيه ليس خارج إرادته.. اطمأنت نفسها من هذه الفكرة.. إن الأفكار رزق مثل المطر، و مثل النسمة الباردة التي تتسلل من النافذة في ليل أغسطس القائظ.

حاولت أن تمني نفسها بنوم هادئ يغسل ما علق بها من الهموم. تحاول أن تفكر بإيجابية.. ستنام دون أن يوقظها طفلٌ يريد الرضاع، أو طفل يريد دخول الحمام . ستنام وتفرد جسدها على الفراش، بعد أن بقيت لسنوات تنام على حافة الفراش في وضع الجنين والصغيران بجوارها متناثرين، صافين أذرعتهما وأرجلهما كما لو كانا يستعدان للطيران. ستنام لأول مرة منذ سنوات لا تحمل هم غسيل الأطباق وكنس الغرفة التي بُثَت فُتاتاً و ألعاباً..

نزلت دمعة على خدها، وقد باتت تلك الفوضى ذكرى تشتاق لها بعد أن كانت منذ أيام تضيق بها ذرعاً. بحثت عن بث إذاعة القرآن الكريم على المحمول، فوجدت القارئ يتلو " لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون". آيات القرآن رزق مثل المطر ..ومثل كبسولة الدواء تتناولها قبل النوم، فتستيقظ وقد غادرتك الآلام.

في الصباح التالي تحاملت على نفسها لتنظف ببطء شديد ما يمكن تنظيفه، وقد تُرك المنزل مهجوراً منذ شهر أو يزيد. البيت الذي تحبه ويحبها.

وجهها مزراق من المرض بشكل أخافها. توضأت وجلست على مقعد تصلي كالجذع الهزيل اليابس. تدعو الله ألا يثقل عليها

بالبلاء وأن يحفظ أسرتها واحداً واحداً. ذكرتهم جميعاً، ولم تنس حبيبها الغائب الذي لم تسمع صوته منذ شهر .

" يا رب .. رجعهولي يا رب!"

**

" يا رب رجعهولي"

ختمت سمية دعواتها الباكية بجمع شملها هي وزوجها الحبيب الغائب، ومسحت وجهها ونهضت لتستكمل عملها بعد انتهائها من صلاة الفجر. أخبرت صالح بقصة إبراهيم جارهم الذي سيوزع الطلبات مقابل نسبة صغيرة.

- انت تعرفه يا صالح ؟
- ايوة عارفه، اللي ساكن الدور التاني .. معرفة سطحية.
- انت رأيك إيه؟ أتفق معاه؟
- أنا مش موافق.
- ماتخافش، هو أكد لي إن مفيش مشاكل. وبعدين دا أكل، هو مخدرات؟!
- بقيتي سيدة أعمال اهو، وبتتفقي وبتدي عمولات..

لم تغفل سمية نبرة الضيق في صوت زوجها. قالت باستسلام :

- خلاص، ما دام مش موافق بلاش.

صالح يعلم أن زوجته تحب هذا العمل، وهو يعرف أنها لا تريد التنازل عنه، و لكن هذه المرأة الشرقاوية ذات التعليم المتوسط كانت دوما تفضل رضاه على كل شيء في العالم. كلما مضى بهما

العمر كان يتأكد أن اختياره لسمية تحديداً كان أفضل قرارات حياته. تنهد صالح وقال:

- أنا مضايقني حاجتين بالضبط. الأولى إني أنا الراجل وقاعد من غير شغل.
- والثانية؟
- والثانية اني باغير عليكي. مش حابب تتصلي براجل غريب وتفضلوا ترغوا.

زواج عمره خمس عشرة سنة لم تشعر فيهم بسعادة تساوي سعادتها بكلمته اليوم.

- بجد بتغير عليا يا صالح؟
- اما ماغيرش ع القمر يعني أمال اغير على مين؟!

احمر وجهها كما لو كانت فتاة في الثانوية. لم يعتد صالح قول هذا الكلام قط من قبل. أقبل الأولاد وصاحت منة:

- يعني ماما قمر وأنا لأ يا أستاذ بابا؟!

ازداد وجه أمهم احمراراً، وهربت منهم تاركة لهم الهاتف ليكلموا أباهم. سمعته يقول:

- يا عيال سيبوني اكلم امكم شوية.. وحشاني.

ضحكت من قلبها وهي تتواري من الأطفال. قالت منة ممازحة:

- على فكرة انت ممكن تتجوز تاني في مصر، ويبقى عندنا اتنين ماما.

أسرعت سمية تخطف الهاتف وهي تقول بغيظ:

- يابنت اللذين.. عاوزة ابوكي يتجوز عليا؟! دا ستك ام عطية الله يرحمها عمرها ما قالت الكلمة دي.

كانوا جميعاً يضحكون حتى بدت لهواتهم، ماعدا سمية التي قالت بتحذير خائف:

- اوعى يا بو محمد.. اوعى تعملها .
- ماقدرش!
- عموما عيالك رهينة عندي، أنت حر!

أطلق ضحكة من داخل قلبه. قال في مزاح مثيراً غيظها أكثر:

- أنا ممكن اتجوز اما ارجع الكويت، لكن دلوقت مش معايا فلوس اطمني.

**

لا تزال أعداد حالات الإصابة بالكورونا تزداد في مصر. شيماء حبيسة في شقتها تتفطر شوقاً لصغيريها، ولزوجها أيضاً. تشقق بيتها وأصبح كل منهم محبوساً في جهة من جهات الأرض. بكت كثيراً على حال بيتها الجميل كيف كان، رغم البرودة بينها و بين أحمد و لكن الوضع كان أفضل مما هو عليه الآن.

أسبوع مضى لم تلمس فيه إنساناً، لم تمسح شعراً، ولم تقبل خداً. الأمهات تعلمن ماذا يعني هذا! إن الأم منذ تفتح عينيها وهي تسبح في الأطفال. تحمل هذا، وتحضن هذا، وتقبل هذا، وتطعم هذا، وتدغدغ هذا. مساحتها الشخصية لا تتعدى السنتيمتر الواحد. كانت تلك الأم منذ أسبوع .. كانت صبارة تلتصق البراعم على جوانبها.

الأيام الأشق قد مرت. مازالت عظامها تؤلمها، ومازال فمها مزروعا بالفطريات الحارقة، ولكنها أفضل حالاً، وهذه هي الحكمة من المرض: أن تشعر بقيمة الحياة المعتادة التي لا ألم فيها.

اتصل والدها ليطمئن عليها كعادته كل صباح. قال بعطف:

- ازيك يا بنتي
- الحمد لله يا بابا، أنا كويسة.
- ماتزعليش مني يا بنتي ان كنتي سمعتي مني كلمة ضايقتك!
- عمري ما ازعل منك يا حبيبي، ماما وشروق عاملين ايه؟
- بخير.. بس شروق تعبانة في المذاكرة.
- مش بيدوا حصص اونلاين ؟
- ايوة بس الرياضة بالذات واقفة معاها. أنا عمال أدور على مدرس يجيلها البيت لوحدها. كلهم اللي مشغول، واللي مابيروحش بيوت.

لم تدر كيف قفز إلى عقلها صورة الأستاذ صالح الذي هبط عليها في الوحدة يوم العاصفة حاملاً حماته المسنة. هتفت:

- بابا. .. انا أعرف واحد مدرس كان مرة جالي في الوحدة .أظن دا ممكن تلاقيه فاضي لأنه مش معروف هنا في الزقازيق.
- طيب يا بنتي اديني رقمه، يمكن ربنا يجعل في وشه القبول.

أنهت مكالمتها مع والدها بعد أن أملته الرقم، ثم سمعت طرقات على الباب وهي وحدها بالمنزل. لم تكن تنتظر زيارة من أحد، فقلة هم الذين يعرفون بوجودها في شقتها. قالت بتردد وقد توترت من إلحاح الطارق:

- مين؟

سمعت صوتا نسائيا:

- أنا جارتك يا دكتورة.. نهلة ام عبد الرحمن.

قلقت شيماء، فجارتها هذه لم تر وجهها قط. هي امرأة تماثلها طولاً تختفي خلف عدة طبقات من الأخمرة و النُقُب السوداء. تسلم عليها إذا التقيا على الدرج. صوت نسائي مرح يتسلل من خلف الحواجز. تعارفا سريعاً، تقاربها في السن، ربة منزل "طبعاً لأن هؤلاء النسوة المختفيات خلف النقاب تكرهن العمل وتكتفين بخدمة الزوج الشيخ وأطفاله". هي لا ترتاح لهذه النوعية من الناس، رغم أنها لم تر من المرأة إلا لطفاً وذوقاً. لم تحاول قط أن يزيد التعارف بينهما عن الكلمات المقتضبة على سلم البناية. قالت بتوتر واضح:

- أهلاً يا نهلة، سامحيني مش هقدر افتحلك؛ أنا احتمال كبير يكون عندي كورونا.

تخاطبتا وبينهما الباب المغلق. بدا التأثر جلياً في صوت نهلة وهي تقول:

- شفاك الله وعافاك، طهور إن شاء الله. أنا شفت الأنوار منورة في الشقة امبارح قلت اطمن.
- شكراً يا حبيبتي.. ازي الولاد؟
- بخير الحمد لله، وانتي ولادك عاملين ايه؟
- عند بابا والله، أنا جيت وعزلت نفسي هنا.
- والدكتور كويس بخير؟
- الحمد لله بخير ، ما هو في الكويت انتي عارفة.
- ربنا يجمع شملكم يا رب! انا عارفة انك معاكيش تليفوني .. هاتي امليهولك، وبالله عليكي تتصلي لو عزتي أي حاجة ما تتكسفيش.

شعرت شيماء بالامتنان رغم ضباب القلق الذي يعوقه. أجابت:

- متشكرة يا حبيبتي، ما تحرمش.

**

دخل صالح إلى منزل الحاج حسن والد شيماء. رحب به الرجل و أدخله لمكان الاستقبال. قال الحاج حسن في ترحيب:

- أهلاً يا مستر صالح. شيماء بنتي شكرت لي في حضرتك.
- العفو يا حاج حسن. دا هي دكتورة شيماء اللي جميلها على راسي.
- بص بقى يا مستر .. شروق بنتي عاوزة تبقى مهندسة، والرياضة عطلانة معاها وحصص الاونلاين دي مش نافعة .. تكالي على الله ثم عليك في الموضوع دا .
- ماتخافش.. إن شاء الله هخليها تشرب المنهج شرب.

دخلت شروق تحمل صينية مشروبات باردة، وحيت الأستاذ وتبادلا عبارات الترحيب. قال الأب:

- أنا سمعت انك كنت في الكويت.
- والدتي الله يرحمها تعبت قبل الحظر على طول.. نزلت مصر وسبت المدام والأولاد على أساس اني هطمن على والدتي وارجع .. بس زي مانت شايف.
- ربنا يجمعكم على خير يا رب، يعني حضرتك ما درستش في مصر خالص؟
- لا طبعاً انا اشتغلت فترة قبل ما اسافر

- مين عالم يمكن ربنا يفتح لك باب رزق هنا .. ولا مش عاوز تسيب الكويت؟

- الكويت بلد جميلة يا حاج حسن وربنا رزقنا فيها من فضله.. بس في الآخر مهما طولت بتفضل غريب. وادينا في لحظة انطردنا ولا حد سأل فينا.

أطرق حسن و هو يتنهد، فقال صالح محاولاً إلقاء شجونه خلف ظهره:

- يا للا يا آنسة شروق، هاتيلنا الكتب وخلينا نبدأ.

أنباء المصريين العالقين كانت موجعة، مهينة، ومخيفة. كل يوم يتصاعد للسطح خبر عن طرد المصريين وإهانتهم. آلمه أن أمضى عشرة أعوام في تعليم أبناء الكويت وقد أصبح تلامذته أساتذة بالجامعة ومهندسين وأطباء، ثم ها هو يلقى به خارجاً ويحرم من العودة، بل ويتهم بسرقة رزق غيره.

كره الكويت لأول مرة منذ سافر إليها منذ أربعة عشر عاماً. كانت تبعده عن أمه وإخوته، ولكنها كانت تضمه برزقها الطيب وعيشها الرغد. اليوم أصبح خائفاً ولم يعد التفكير في بديل للكويت محض رفاهية. لقد أصبح ضرورة حتمية إن كان يريد أن يحتفظ لأبنائه ببعض ماء الوجه.

قضبان من العنصرية، ومن الوباء، ومن البيروقراطية تحول بينه و بين عائلته، وبينه وبين مصدر رزقه هناك. ينفطر قلبه عليهم وهو يراهم تحول بينه و بينهم قضبان شفافة كالزجاج، كالجليد، ولكنها أصلب من الخرسانة.

**

عيد الفطر على الأبواب، وأحمد في محبسه يفكر في العيد الذي سيقبل بلا عائلة، بلا نقود، بلا حلوى، وبلا صلاة العيد. مازال في داخله ذلك الطفل الذي يفرح بالكعك وعيدية الأجداد. سيقضي هذا العيد وحيداً تفرق بينه وبين أحبابه المسافات والنمائم. لقد بكى الرجل – والبكاء عظيم عند الرجال- في هذه الأيام ما لم يبكه في عمره. يقرع سنه ندماً على ذنبه، وعلى تفريطه في بيته الصغير الدافئ.

الأعياد دوماً ترتبط بالذكريات. تذكر العيد كيف كان في بيت أبيه. اجتماع العائلة وزحامها، وكانت أمه على قيد الحياة حينها. الأم التي كانت تهذب شدة الشيخ يابس الرأس. خفق قلبه وهو يتذكر أول عيد بعد زواجه من شيماء، حين دخل منزل أبيه ممسكاً بيدها ومازال لقب "العرسان" يلاحقهما. كم كان سعيداً مطمئن القلب حينها. عندما جلسا إلى جوار بعضهما، وإخوته يتندرون عليه وعلى التصاقه بعروسه، فيرد تندرهم بالمزيد من المزاح معلناً حبه وسعادة قلبه أمام الجميع دون خجل. استعاد ذكريات الأعياد التالية. مهما تكن الظروف والمشاق كانت شيماء تصر على أن يكون بيتهما الجميل لامعاً بارقاً في صباح العيد. حاولت مرة إعداد الكعك في المنزل. تبسم و هو يتذكر كيف كان قاسياً كالحجر، وكيف كان ضحكهما منه حينها. ليلة العيد كانت تحمم زياداً الصغير ومهند الرضيع بعد ذلك وتلبسهما ثيابهما الجديدة، وتتكلم مع زياد بحماس عن يوم العيد و الصلاة. يتذكر شكل زياد في الجلباب الأبيض الصغير، كم كان يسرق من قلوب!

كان ليلة العيد الماضية ساهراً في المستشفى. العيد الذي سبقه كان في العيادة. أعياد قليلة بقيت جميلة براقة في ذاكرته بعد استبعاد الأعياد التي قضاها نائماً مجهداً بعد ليلة عمل طويلة.

كم اشتاق لزوجته الجميلة! لحبيبته الصغيرة الجسم ! هل يمكن أن يستعيدها؟ هل يمكن أن يعود قطار العمر إلى الوراء، وأن يتوقف مجدداً عند صباح العيد الذي قضياه في بيت أبيه بين الضحك والثرثرة الصاخبة المؤنسة؟

**

كانت شروق وإيمان، التي انضمت لها في الدرس المصغر، تجلسان إلى السفرة و صالح منهمك في الشرح. كان صالحٌ سعيداً بالعمل، يشعر أن الله يفتح الأبواب المغلقة تدريجياً. أنهى الحصة و قبل أن يغادر دعاه الحاج حسن لأخذ القهوة معه.

قال حسن:

- أخبار الكويت إيه يا أستاذ صالح؟
- مش كويسة للأسف والله يا حاج حسن. لسة في الحظر الكلي والدنيا مقفلة ضبة و مفتاح.. حتى مفيش حد يخرج من منطقته ، و كل المحلات مقفولة.

تنهد حسن وسأله:

- ولادك كويسين يابني؟
- الحمد لله..
- هو انا لو حبيت ابعت فلوس لجوز بنتي هناك اعمل ايه؟
- عن طريق البنك؟ سهل.
- لا.. هو لسة مسافر قبل الكورونا على طول، ولا عنده حساب بنك، ولا طلعت له إقامة، ولا معاه بطاقة مدنية.

وضع صالح فنجانه وهو يرفع حاجبيه متأثراً؛ لقد اكتشف للتو أنه أفضل حالاً بكثير. تساءل بدهشة:

- امال عايش ازاي ؟

- ربنا ما بينساهوش يابني.. واحد مندوب مصري هناك معاه تصريح بيروحله ساعات يشتريله طلباته. لكن الوضع صعب وقللوا الرواتب منهم لله! مش عارفين الراجل الغلبان لسة جاي من بلده ولا حيلته أي حاجة يتركن عليها؟!

قال صالح وهو يزفر في حنق:

- الأزمة اللي احنا فيها دي طلعت ناس كويسة، وطلعت ناس زبالة .

صمتا قليلاً ثم قال صالح:

- هي الدكتورة صحتها عاملة إيه دلوقت؟

- الحمد لله .. هي بتقوللي أحسن شوية .. والله يابني بقالي عشر أيام ما شفتهاش

- ربنا يطمنك عليها يا حاج.

ثم رفع عينيه له وهو يستأنف:

- هو ساكن فين الدكتور...؟

أوضح حسن:

- دكتور أحمد ... ساكن في العاصمة.

حك ذقنه بتفكير وهو يقول كالذي يكلم نفسه:

- مين من معارفي يكون معاه تصريح سير في الحظر؟ لازم يكون شغال في مستشفى.

لمعت عينه فجأة ثم قال وهو يخرج هاتفه:

- استنى هعمل مكالمة.

اتصل بسمية في الكويت فأجابت فوراً، سلام سريع ثم قال:

- قوليلي يا ام محمد .. انتي مش قلتي ابراهيم جارنا معاه ترخيص وهيوزعلك الحاجة ؟

أجابته سمية بتعجب:

- هو انت مش كنت مش موافق؟!

قال صالح:

- لا خلاص غيرت رأيي.
- فجأة كدة ؟!
- اسمعي بس، انتي معاكي فلوس؟

نظر له الحاج حسن يستمهله، ولكنه أكمل:

- انتي عارفة الدكتورة اللي كشفت على امك يوم العاصفة؟ ايوة دكتورة شيماء. جوزها في الكويت، والدكتورة هنا عاوزة تبعت له فلوس. ممكن تكلمي ابراهيم يوصلهم له. تمام .. هقوللك تديله كام وهعرف العنوان بتاعه بالضبط.

قال حسن بارتياح بعد أن أنهى صالح مكالمته مع زوجته:

- إلهي يبارك لك يا شيخ!
- العفو يا حاج حسن، دي الدكتورة شيماء فضلها عليا و على مراتي. دا حاجة بسيطة.
- طب استنى هجيبلك الفلوس. هديلك أربعين دينار.
- خلاص يا حاج والله.. خلي!
- لا مفيش الكلام دا.. هجيبلك الفلوس.

**

اقترب أذان الظهر ومازال يتقلب على فراشه عاجزاً عن النوم، فقرر أن ينهض ينهك نفسه أكثر في القراءة حتى يصلي الظهر ثم ينام. كان يتوضأ حين سمع طرقات على الباب. فتح باب الشقة وهو يجفف وجهه و يضع نظارته فإذا إبراهيم أمامه يحمل أكياساً وعلباً كبيرة الحجم.

- إيه دا كله يا إبراهيم ؟!
- والله ما انا يا دكتور..

وضع العلب والأكياس جانباً، وأخرج من جيبه ورقتين من فئة العشرين ديناراً ورفعها أمام أحمد المذهول. سأل أحمد يحاول أن يخفي سعادته:

- دكتور مشاري اللي باعت الحاجات دي؟
- لا..
- يابني ما تنطق.. امال مين؟

حك رأسه في حيرة و هو يقول:

- انت تعرف واحدة اسمها ام محمد؟

هز أحمد رأسه نفياً فعاد إبراهيم يسأل:

- طب تعرف واحد اسمه استاذ صالح؟

عصر مخه دون فائدة، فقال إبراهيم وهو ينظر في هاتفه ويحرك أصابعه بسرعة:

- بص .. دا رقم الست ام محمد. هي اللي قايلالي اجيبلك الحاجات دي واديك الفلوس دي، حاولت افهم منها ما قالتش حاجة. واديني وصلت الأمانة، وسيبني بقى أشوف اللي ورايا.

ترك إبراهيم الطبيب الشاب خلفه متحيراً. نظر للأربعين ديناراً في يده، ونظر للأكياس فوجد أطعمة معدة للطهي، ووجد علبة كبيرة من كعك العيد وعلبة شوكولاتة. أسرع يتصل على الرقم الذي أخذه من إبراهيم فأجابه صوت شاب صغير. تعجب وقال بتردد:

- دا تليفون الست أم محمد؟
- أيوة يا فندم أنا محمد ابنها، حضرتك بلغني طلبك وعرفني عاوزه امتى.
- لا لا .. أنا عاوز أكلمها.. أنا دكتور أحمد عبد الله.

ثوان وكلمته أم محمد الغامضة تلك قائلة:

- أهلاً يا دكتور، الحاجة وصلتك؟

ازداد حيرة وهو يقول:

- كتر خيرك يا مدام .. بس أنا ما اعرفكيش!

ضحكت سمية وقالت:

- انا عارفة، هاحكيلك.. الفلوس دي حماك اللي باعتهالك.

اندفعت سمية تحكي القصة المعقدة عن التقاء زوجها وأمها الفاقدة الوعي بالدكتورة شيماء في ذلك اليوم العاصف، حتى حديث الحاج حسن مع صالح ورغبته في إرسال المال إليه، وأخبرته أن الكعك والطعام توصية زوجها الأستاذ صالح.

كان أحمد يستمع متعجباً، بل مذهولاً من الألطاف الإلهية وتدخلاتها. شكر أم محمد وطلب منها تسجيل رقمه ليطلب من

طعامها وقت اللزوم، وعرض عليها أن تسأله في أي استشارة طبية وختم المكالمة.

أحس في تلك اللحظة أن حب الله تعالى قد ملأ قلبه. لم يكن أحمد قد نطق حتى برغبته في وجبة جيدة أو في طبق من الحلوي في صباح العيد. لم يعلم بمجامع سره إلا واحد فقط هو الذي ساق له و هو في محبسه علبة الحلوى وعلب الطعام، بل وزاده أربعين دينارا أيضا ستكفيه مؤونة شهر كامل.

خر ساجداً لله سجدة طويلة.. امتنان يملأ جوانحه وأمل باهر للأعين بأن كل مشاكله ستُحل، والأهم من هذا كله هو إحساسه بأن الله سامحه على ما جرى منه، وأنه -في عليائه- لم يطرده كما طرده كل العالم.

أرسل رسالة حارة لحماه يشكره على المال، ويطلب منه توصيل الشكر للأستاذ صالح. يعلم أن حماته لا تطيق سماع أنفاسه حتى، فاكتفى بالرسالة فقط.

**

فتحت شيماء باب شقتها بعدما تلقت رسالة من جارتها نهلة. وجدت علبة بلاستيكية بها قطعة من الدجاج و كمية محترمة من الأرز المبهر. هكذا هم الجيران في الزقازيق.

اتصلت شيماء بجارتها نهلة وشكرتها بحرارة على الطعام. الجليد يذوب بينهما شيئاً فشيئاً. شخصية المرأة على العكس تماماً من ظنون شيماء القديمة. كلامها ينبئ عن شخصية مرحة مضيئة، تحكي عن المصائب بضحكة تهونها وتمتص ملحها.

المرأة المضيئة من خلف النقاب تحمل إجازة في القرآن الكريم إضافة إلى إجازات أخرى في عدد من علوم الدين

الإسلامي. كانت شيماء من قبل تنظر لنفسها على أنها قرأت كتباً لم يقرأ أحد في حجمها. لقد أرسلت نهلة لها كمية كتب إلكترونية من قراءاتها، ليس لمنطق أن يفسر كيف لهذه الأم ذات الأطفال الثلاثة أن تقرأ كل هذه الكتب، وتطالع كل هذه المرئيات، وتتابع كل هذه الكمية من الدروس. شعرت الطبيبة أنها تتضاءل أمام امرأة كانت تظنها قبل أسبوع محض امرأة جاهلة متزمتة.

عقلان من ألماس التقيا عبر الهاتف. كانت نهلة إيجابية متقدة الحماس، وكانت تتسبب بمرحها المدهش في إضحاك شيماء المكبلة بالكورونا في شقتها ، فتضحك المسكينة حتى تسعل سعالها الجاف كالحجارة.

عكفت نهلة على إرسال الحلوى والطعام لشيماء طوال فترة حجرها. ذابت قضبان الجليد بينهما، حتى تجرأت شيماء ذات مرة وقالت عبر الهاتف:

- نهلة، أنا عاوزة أفضفضلك بسر ... أو هو مش سر صراحة.. هو فضيحة ...مشكلة كبيرة اوي أنا واقعة فيها.

وانطلقت تحكي ما حدث بينها و بين زوجها. صمتت نهلة حتى استمعت القصة للنهاية . توقعت شيماء تقريعاً عنيفا لزوجها على الكبيرة التي ارتكبها، و لكن نهلة قالت بصوت هادئ:

- أنا رأيي ان علاقتكم فيها أمل، وأمل كبير كمان.. وممكن بشوية تنازل منك تتصلح.
- ماتوقعتش تقولي كدة خالص!

قالت ممازحة:

- افتكرتيني هشتم دكتور أحمد ،صح ؟

قالتها وضحكت، ثم استأنفت بمزاحها المعتاد:

- هو أنا قفيلة صحيح، ومخي جزمة في الحلال و الحرام، بس الصح صح. مادام اعترفلك، وتاب إلى الله يبقى انتي الأفضل تتصلي بيه، وتصارحوا بعض ويحكيلك كل حاجة. الغربة فتنة يا شيماء .. دا سيدنا يوسف النبي تعرض لفتنة الغربة لولا إن ربنا ثبته .. ربنا بيقول " وهمَّ بها لولا أن رأى برهانَ ربِّه".

- طيب والعيلة؟

- وانتي مالك بالعيلة؟ المهم انتي وهو.. دي حياتك انتي.. اللي بيتكلموا دول كل واحد فيهم نايم بالليل في حضن مراته، وانتي اللي قاعدة هنا لوحدك شايلة الطين. إن شاء الله لما تتصالحوا وتعدي كام سنة كل واحد منهم هيحط لسانه في بقه، وانتوا اللي هتثبتولهم إن كل اللي قالوه كذب.

- بس هو فيه جزء من الحقيقة يا نهلة.

- التوبة تجب ما قبلها، يعني تقطعه تماماً، كأنك قطعتي صفحة من كراسة رميتيها خالص.

صمتت شيماء برهة تفكر ، بينما قالت نهلة:

- بصي أنا هبعت لك رابط قناة دكتور جاسم المطوع. اسمعيه، نصايحه هتفيدك جدا، وسيبيني بقى عشان اقوم اطبخ. والله انا عاوزة انزل احضنك وآخد الكورونا واتعزل تحت معاكي، وأسيب المطبخ والعيال وقرفهم.

ضحكتا معاً مطولاً ثم ودعتا بعضهما. تسلمت شيماء رسالة جارتها تحوي الرابط الذي أخبرتها به. لمسته فأحالها لمرئية على يوتيوب، علمت أن نهلة قد اختارتها عمداً. كانت مرئية مدتها خمسين دقيقة تقريباً بعنوان " تصحيح العلاقة بعد الخيانة".

**

صباح عيد الفطر

يحاول الناس أن يفرحوا بلا صلاة عيد و بلا تكبيرات في المساجد. أملهم يصّعّد في السماء بأن دعواتهم في شهر رمضان ستستجاب، وستزول الغمة عن كل المكروبين في العالم، وعن كل من حبسته قضبان الزجاج.

فتح أحمد هاتفه وقد صنع لنفسه كوباً من الشاي، ووضع صحناً من الكعك ليقنع نفسه أن هذا هو العيد. أمله في الله أن يكون قد غفر له ما مضى. أخذ يقلب في فيسبوك لأول مرة منذ شهر.

تسمر أحمد وقد وقعت عينه على منشور عمره يزيد عن عشرة ايام على مجموعة خاصة بزملائه الاطباء في الزقازيق. منشور كتبته زميلة لزوجته:

" ادعوا لزميلتنا شيماء حسن بالشفاء، مشتبه إصابتها بالكورونا" اتصل فوراً بشيماء فلم ترد، ترك لها رسالة وانتظر بلا جدوى. أسرع يتصل بحماه الذي أجابه فلم يلق أحمد لا تحية ولا معايدة، وابتدره في خوف:

- عمي هي شيماء جالها كورونا فعلا

أطرق الأب حزيناً ففهم أحمد الإجابة وصاح بعصبية:

- ازاي ما تقوللیش يا عمي؟! أنا كلمتك كذا مرة ؟ هي تعبانة من امتى؟ وفي المستشفى ولا إيه حالتها؟
- اهدا يا أحمد.. هي الحمد لله بتتحسن دلوقت.
- أمال هي فين؟ محجوزة؟
- لا.. أول ما حست بالأعراض راحت شقتكم وعزلت نفسها هناك.
- بقالها كام يوم؟

- تقريبا دا تاني اسبوع.
- متأكد يا عمي هي كويسة؟ ما بتردش ع التليفون.
- ماتخافش يا أحمد، هتفتحه كمان شوية أما تقوم.

تدخلت أم شيماء عندما سمعت صوته. فوجئ حسن بها تختطف الهاتف من يده وتصيح في أحمد:

- انت عاوز منها إيه؟ مش خلاص طلقتها؟

طالما علم أحمد بنزق طبعها، وعانى من تدخلاتها في اختيارات ابنتها. هذه المرة لم يلمها على غضبها وصياحها في وجهه:

- وشك نحس علي بنتي وعلى كل اللي يعرفك. إياك اعرف انك كلمتها، سيبها في حالها بقى يا أخي.

نظر حسن إلى زوجته بنظرة نارية كبحت اندفاعها في إهانة الفتى، وقد أرادت دس أصابعها في جروحه حتى تصل لعظامه. كان عند حسن أمل كبير بأن يجتمع شتات طفلته مع زوجها وولديها.. أملٌ بأن تجبر هذه المحنة كسورهما على عكس ما ظن الجميع. جاءت المرأة الغاضبة فأفسدت كل شيء.

لم يستطع أحمد تحمل كلام حماته، وأغلق الخط قبل أن يرى صغيريه.

**

فتحت شيماء هاتفها أخيراً بعد ظهر يوم العيد. حمدت الله على كثرة الأحباب الذين أمطروها باتصالاتهم ورسائلهم. ارتعشت يدها حين وجدت رسالة من أحمد. مسحت دمعة قفزت لعينها المجهدة وهي تقرأ:

" أرجوك يا شيماء ردي عليا طمنيني عليكي أنا هموت من القلق".

يبدو أنه علم مؤخراً فقط بمرضها. فكرت لبعض الوقت.. أسعدتها رسالته بعد أن ظنته نسيها وألقاها وراء ظهره..

ماذا تريدين يا شيماء؟ هل أنت على استعداد لترك أحمد فعلاً؟

نعم أخطأ ، وأنت أيضاً أخطأت! أخطأت حين تركته يواجه الشيطان وحده، حين فضحته عند أهلك وأهله، بدلاً من أن تستري عيبه كأي زوجة محبة. لقد تركته للشيطان يفترسه. كان حرياً به بعد ما حدث أن يذهب لفتاته، وأن يفعل كل ما يجول بخاطر شاب يائس وحيد ومغترب.

لقد كنت ضعيفة حينها نعم.. هو أيضاً كان ضعيفاً..

ليتك حين بدأت الغربة بينكما قلت له: أوقف طاحونة العمل هذه.. سنعيش على قدر مرتباتنا فقط. ليتك حين بدأ بالغياب عن سفرة الغداء قلت له: لن أطعم لقمة من دونك. ليتك حين بدأ التباعد بينكما جذبته إلى حضنك، وكففت عن الشكوى. ليتك تركت العمل والماجستير، ليتك أضعت كل هذا واحتفظت به وحده.

اتخذت قراراً بأن تتصل به. بأن تبدأ ترميم ما بقي من حبهما، وقبل أن تنفذ قرارها كان رنين اتصاله يرتفع. وكأي امرأة طبيعية عدلت شعرها المتهدل وفتحت الهاتف. نظرا لبعضهما البعض، وكأن روحيهما قد فارقتهما حين افترقا. كان نحيلاً نامي اللحية ، تكامل ظلامها مع شعره الذي لم يحلق منذ بدء الحظر، ومع ظلام عينيه المهمومتين، وهي كانت شاحبة، أعلنت عظام وجهها المزرق عن نفسها بوضوح.

ظلا يتأملان بعضهما في شوق ودون كلام. مضت ربما دقيقة كاملة قبل أن يتكلم هو أخيراً:

- ازيك يا حبيبتي؟ وحشتيني !
- أنا .... الحمد لله على كل حال.
- وشك تعبان قوي!
- فعلاً تعبانة.. بس دلوقت أحسن كتير من أول كام يوم.
- عملتي مسحة؟ حد شافك؟
- لا .. أنا عزلت نفسي وخلاص. بس انت عرفت منين؟ بابا قال لك؟
- لا ما جابش سيرة خالص.. نرمين زمزم كانت كاتبة على الفيس.. أول مرة أشوف البوست النهاردة.
- كتر خيرها!

صمتا مجدداً حتى قطعت هي الصمت هذه المرة بكلمات متهدجة باكية:

- انت كمان وحشتني!

احتقن وجهه بدموع يقاومها، يتأمل المقعد الذي يحتويها، كان ذاك مقعده المفضل في بيته. سأل بصوت حنون:

- البيت وحشك؟!
- قوي.. ما تعرفش قد إيه!
- أنا كمان وحشني!
- عامل إيه في الحظر؟ حد بيكلمك؟

سكت مطولاً وهو يشيح بعينيه عنها. كان قد نسي للحظات ما حدث كله.. لا مفر من العودة للأرض، لا مفر من فتح الجرح وتنظيفه، ولو كان ألمه يشق الروح شقاً. قال بألم:

- بابا واخواتي ما كلمونيش من أول رمضان، عيلتي كلها بتشتمني وبتحكي عن مغامراتي.

قالها بابتسامة أمر من البكاء. ترددت شيماء قبل أن تقول:

- انت عاوز نتكلم في الموضوع دا؟
- الكلام مش هيوجع أكتر من اللي حصل فعلاً!
- انت ...انت عملت كدة كام مرة؟
- هتصدقيني؟
- هصدقك.
- مرة واحدة ..وقرفان من نفسي .. وتبت لله، وربنا شاهد عليا.
- زميلتك في الشغل؟
- السؤال دا هيريحك في حاجة؟
- معلش، جاوبني.

نظر بعيداً وهو يقول:

- واحدة مش محترمة .. شفتها مرتين تلاتة في العمارة والسوبر ماركت، مش اكتر من كدة... لفت عليا وضعفت.

سكتت شيماء.. لم تعلم ما هي مشاعرها بالضبط. أراحها قليلاً أن الأمر كان مجرد شهوة خرجت عن السيطرة، وليس امرأة شاركتها في قلبه. كانت تتألم، وكان يشعر أمامها بالخزي. قال أحمد:

- أنا حيوان .. أستاهل كل اللي حصللي.. كل دا ما يسواش دمعة من عينك.. كلامك ساعة اما قلت لك دبحني دبح.

كانت هناك دمعة تسيل على وجهه المشعر وهو يردف:

- أنا بخاف ربنا يا شيماء .. عمري ما عملت العملة دي قبل كدة. كان أسوأ إحساس مر عليا. ماقدرتش أستحمل.. أنا عارف كان المفروض أكتم ومافضحش نفسي لكن ما قدرتش.. الذنب كان تقيل عليا قوي.

عرفت صدقه.. هي على يقين من أن كل كلمة يقولها هي من أعماق قلبه. هي تعرفه كما تعرف نفسها. أكمل أحمد كلامه في ألم:

- عارفة إيه أكتر حاجة رعبتني؟ فكرت للحظة إني لو مت وأنا باعمل الذنب دا كان حصل إيه؟ لما ربنا يسألني عنه هقف قصاده ازاي؟ هبرر له بإيه؟ أصلا ازاي هعترف بحاجة زي دي؟

أبعد الهاتف عن وجهه و سمعت صوت بكائه المكتوم. أشفقت عليه بقدر ما أسعدها ما قاله. هذا هو الرجل الذي تحب، والذي يجب أن تحافظ عليه. نادت عليه عبر الهاتف فمضت ثوان قبل أن يعود لمرآها محتقن العينين مبتل اللحية يتنفس بصوت متقطع. عضت شيماء شفتها لتوقفها عن الارتعاش، وقالت بصوت يزدحم بالندم والبكاء:

- أنا كمان غلطت؛ كان لازم أقف جنبك بدل ما اهدم بيتي. للأسف مجرد ما خرجت من البيت مقدرتش أمنع السر إنه يتعرف، شروق قالت لإيمان، وإيمان عرفت العيلة، وكل واحد ألف حكايات من عنده، و أنا مش عارفة الحقيقة أصلاً.

- أنا مش زعلان منك.
- لكن أنا زعلانة من نفسي.. كان المفروض أحافظ على بيتي. غصب عني كنت ضعيفة، كنت متبهدلة في الشغل، وفي الجامعة، ومع الولاد وبابا وماما. أنا بجد دلوقت نفسي لو كنت ست عادية معايا دبلوم وأقعد في البيت أربي ولادي.
- لا.. انتي كدة أنفع للناس.. انتي عاجباني كدة!
- وإيه الفايدة دلوقت وانت بعيد عني.. انت أغلى حاجة عندي يا أحمد... بجد أنا مش عاوزة حاجة من الدنيا دلوقت غير إني أبقى جنبك.

مضى صمت مريح بينهما وقد أفضى كل منهما بما ينوء به. ابتسم أحمد أخيراً وقال:

- انتي خدتي بالك انك قاعدة قصادي بشعرك من أول المكالمة؟

ارتفع حاجباها بذهول وهي تضع يدها على رأسها، وكأن أصابعها ستكفي لحجب شعرها. نسيت تماماً كلمة الطلاق التي شرخت ما بينهما منذ شهر. استدرك احمد قائلاً:

- شيماء .. أنا باردك لعصمتي!

يونيو ٢٠٢٠

في بيت الحاج حسن جلست إيمان بجوار شروق إلى المائدة المعدة للدرس بانتظار الأستاذ. قالت إيمان بشرود:

- هو المستر ليه مش عامل قناة يوتيوب زي بقية الأساتذة؟
- بيتهيألي عشان أصلا ماحدش عارفه، وبعدين هو ماعندوش سنتر.

- طيب وماله؟ الموضوع مش محتاج تكلفة كبيرة، وبيكسب فلوس حلوة.
- تفتكري المستر هيوافق؟
- هنتكلم معاه لما ييجي.

وصل صالح وقد تحسنت نفسيته كثيراً. شرع في نشر كتبه ودفاتره فتكلمت إيمان عن فكرة مشروعها الصغير، فتبسم صالح وقال:

- أنا قديم يا بنتي ماليش في الحاجات الجديدة دي!

تكلمت شروق بحماس:

- يا مستر الموضوع سهل جداً وبيكسب. كل اللي هتحتاجه سبورة بيضا، وكاميرا كويسة، وتشرح وتحمل الفيديو. كل الولاد دلوقت قاعدين في البيت وبيتعلموا ع الانترنت.

شرد مفكرا، فأكملت إيمان:

- انت مش عارف يا مستر دول بيكسبوا ملايين من اليوتيوب دا.

قال ضاحكاً:

- ملايين؟!
- أيوة والله، وبعدين انت تفضل قاعد في بيتك باشا، واليوتيوب عمال يحط فلوس في حسابك.

يتقبل اختلاف كلام شباب هذه الأيام عن طلبته السابقين. الظروف الاقتصادية الصعبة جعلت الشباب يفكرون خارج الصندوق. مصادر الرزق تغيرت تماماً عن الشكل التقليدي الذي

اعتاده ، وأصبحت الأفكار فقط هي الأعلى سعراً، وكلما زادت الفكرة إبداعاً كلما ارتفع ثمنها. بدأت فكرة الفتاتين تستحوذ على اهتمامه. الأفكار رزق مثل المطر، و مثل الطفل الذي تلقاه في المواصلات فيعطيك ابتسامة تعينك على تجاوز اليوم. فليبدأ بتنفيذها وسواء أعاد إلى الكويت أم لا فلتبق قناة اليوتيوب تدر له دخلاً كما تقول الفتاتان. سأل باهتمام :

- وبنعملها ازاي القناة دي؟
- وريني موبايلك يا مستر.

امسكت إيمان بالموبايل وأخذت تشرح له كيف يفتح قناة جديدة وكيف يحقق الربح، وتدخلت شروق بإعطاء النصائح لكي يكون المحتوى جذاباً ليحصل على عدد أكبر من المشاهدات. بقدر ما كان مندهشاً كان معجباً بعقلية الصغار. يتهمهم الناس بفراغ العقل، بينما يظن هو مما يراه من تلاميذه أن العالم قد يتغير فعلياً على أيديهم.

بعد مرور نصف ساعة تكلم صالح وقد استعاد روحه المرحة:

- ياللا خلاص خلصنا درس التكنولوجيا .. نبدأ في الميكانيكا.

**

لم يتوقف صالح لساعات عن التنقل بين قنوات تطبيق اليوتيوب يشاهد محتويات مماثلة لما ينتوي فعله، ومرئيات عن تجويد المحتوى وكيفية الحصول على مكسب مادي جيد من ورائه. اختمرت الفكرة في عقله، ونهض يدور في الشقة كعادته وهو يفكر، يبحث عن مكان مناسب للتصوير. اتصلت به سمية وهو غارق في أفكاره. بعد سلام مقتضب طلب أن يكلم محمد ابنه بالذات، الذي جاء قلقاً يكلم أباه، فبادره صالح:

- قوللي يا واد يا محمد.. انت بتفهم في حاجات اليومين دول انا عارف ..عاوز اعمل قناة ع اليوتيوب و اصور شرح وارفعه.

ضحك الشاب الصغير و قال مقلداً لهجة أعمامه في الشرقية:

- ناوي تعمل قناة يابو محمد؟ هيقولوا علينا إيه في البلد؟!

ضحك صالح وقال:

- ما تتريقش على أبوك، أنا عارفك هتستغلني!

قال محمد بمزاح مماثل:

- نسبتي أربعين في المية قبل أي كلام.
- هتعرف تشوفلي برنامج مونتاج، ولا مش عارف اسمه ايه؟ .. يعني يبقى اسمي على الفيديو ويبقى شكله ابن ناس كدة.
- عيب عليك .. أنا هشرفك.

لكزت سمية ابنها الذي لم تعجبها طريقة كلامه مع أبيه، فتأوه بشكل تمثيلي وهو يقول ضاحكاً:

- شفت مراتك، بتضربني اهي .. مش شغال.

قالت سمية بنظرة نارية:

- يا واد اتكلم بأدب!

ضحك صالح وقال:

- خلاص يا عم المهندس، اديني امك بقى..

تساءلت سمية:

- بجد يا صالح ناوي تعمل قناة؟
- الناس كلها بتعمل، جت عليا؟ وبعدين أنا هقدم شرح وحاجة مفيدة.

نظرت له متحيرة من تحوله. فهم ما يجول بخاطرها عندما رأى طول صمتها:

- البنتين اللي بدرسلهم قالولي على الفكرة دي .. لو ربنا فتح عليا ومشيت ممكن أجيبكم من الكويت خالص.

ضربت صدرها وهي تقول بدهشة:

- هننزل نهائي؟!

قال بهدوء:

- أيوة يا سمية.. لما ربنا بيقفل باب، الصح اننا ندور على باب تاني مش نقعد نولول و نعيط.
- انت عمرك ما كنت بتفكر كدة يا صالح.. طول عمرك تقول انك عاوز تعيش وتموت في الكويت.

وجم صالح مطولاً ، ثم قال لها بشجن:

- مادام الواحد كدة كدة متهان يبقى يتهان في بلده أحسن ما يتهان من الغريب. أنا من كتر الغيظ كنت هموت .
- انت شفت الفيديو؟
- أيوة طبعاً
- ربنا يجازيها هي و اللي زيها. طول عمرنا عايشين عمرنا ما سمعنا الإهانات دي.

أغمض عينيه و هو يشير لزوجته أن تتوقف. قال:

- انا مش عاوز اتكلم في الموضوع دا عشان بيحرق دمي. خلينا نشوف رزقنا ورزق عيالنا فين ونسعى له.

**

تحسنت صحة شيماء بعد أسبوعين من المرض شديد الوطأة. انتظرت أسبوعاً آخر لتطمئن، وأجرت التحاليل اللازمة لتتزداد اطمئناناً. نظفت منزلها وهي تفكر في حل تعيد به الصغيرين إلى البيت وليُبث ألعاباً و فتاتاً كما كان. ودت لو قدمت على إجازة بدون مرتب و لكن زوجها ليس بإمكانه بعد أن يرسل إليها أي قدر من المال.

اشترت بعض الحلوى واتجهت بسيارة أجرة لتفاجئ العائلة. فتحت شروق الباب ولم تكد ترى أختها حتى صرخت باسمها في فرح واحتضنتها لا تملك دموعها، وأتت الأم من الداخل على الصياح وضمت صغيرتها الناحلة. أسرعت تبحث عن الولدين فأخبرتها أمها أنهما مع جدهما. تعجبت؛ لقد اتسع صدر أبيها للصغيرين بعد أن كان يضيق بألعابهما المتناثرة على الأرض. دخلت للحمام تعقم نفسها زيادة في التأكيد. لم تنتو منع نفسها من تقبيل الصغار.

فتح الأب الباب وتفاجأ برؤية شيماء التي أسرعت وضمت الولدين وأخذت تبكي بحرقة وتقبلهما وتشم ثيابهما. كانت شروق قد استعدت لتصوير الحدث، وسالت دموعها وهي تراقب شيماء تنهم ولديها شوقاً. ضم الحاج حسن ابنته التي زادها المرض ضآلة.

تجاوزا الأشواق، وعادت الصبارة تجمع براعمها حولها. تبادلوا الأخبار وأجلت الخبر الهام للنهاية. استجمعت شجاعتها وقالت:

- في خبر مهم عاوزة أقوله.

انتبه الجميع، وتوقع الوالد الحنون طبيعة الخبر من تورد فتاته الشاحبة، التي أكملت:

- أنا اتصالحت أنا وأحمد و... وردّني.

فرح الأب وشروق، بينما نهضت الأم بغضب واستنكار:

- يا سلام! ببساطة كدة؟
- انتي زعلانة اني رجعت لجوزي يا ماما؟!
- جوزك اللي قاعد يتصرمح في الكويت؟ اللي العيلة كلها بتجيب في سيرته وبيتكلموا عن اللي عمله أول ما سافر ولقى نفسه لوحده؟

قبل أن يتدخل الوالد تكلمت شيماء بهدوء وبقوة لم تعهدها من نفسها، رغم أن غضب أمها قد رجَّها قليلاً:

- ماما .. أنا مش عاوزاكي تزعلي مني ..بس دي حياتي، وأنا حرة فيها.

تركتها الأم في غضب، ودخلت غرفتها صافقة الباب بعنف. ربت الأب على كتف ابنته بحنان:

- أيوة كدة يا بنتي، ربنا يكملك بعقلك.

**

كانت سعادة الشيخ عبد الله لا توصف حين رأى زياد ومهند. ضمهما بشوق بالغ وكأنه يريد إيصال ضمته لابنه الوحيد المنبوذ في الغربة. رحب بشيماء ودعاها للجلوس على أحد مقاعد الصالون. اتخذت شيماء مقعدها و تركت الأولاد يمرحون في الداخل، وقد ترك الجد عددا من الألعاب لمن يأتون إلى البيت من أحفاده.

تكلمت شيماء وقالت تمهد لكلامها الذي أتت من أجله:

- ازي صحتك يا عمو؟
- أنا الحمد لله .. ألف حمد الله على سلامتك انتي يا بنتي!

استجمعت شيماء شجاعتها الهاربة من هيبة حميها:

- عمو أنا ..أنا اتصالحت أنا وأحمد ورجعنا لبعض.

صمت الشيخ لا يدري ما يقول. هكذا تجري الأمور دائماً ، يصطلح الزوجان مخلفين وراءهم ما أحرقاه بخصامهما. أردفت شيماء بصوت أقرب للبكاء:

- عمو ... أحمد في كرب.. اتصل بيا وأنا عيانة وكانت حالته صعبة. مش عارف يجيب أكل، ومحبوس بين أربع حيطان من أكتر من شهر، نفسيته في الأرض.

لم يجب أيضاً. كانت دموع شيماء قد بدأت بالنزول على خديها وهي تكمل:

- للأسف يا عمو أنا ما كنتش قد المسئولية. بدل ما أقف جنب جوزي وأداري عليه فضحته. هو صارحني عشان إنسان نضيف، حد غيره كان عمل كل اللي في نفسه ولا كنا هنعرف. أنا لسة قلبي مكسور منه لكن...لكن هو حلفلي إنها مرة واحدة وما تكررتش.
- أمال بيقولوا ....!
- ماحدش عارف حاجة يا عمو.. كلنا ظلمناه. كلنا خضنا في عرضه وهو مكروب لوحده في الغربة. كل واحد يزود في القصة من ناحيته.. احنا بدل ما نسانده ونشجعه انه

يتوب كل واحد عمل نفسه قاضي كأنه ما بيغلطش، وكل واحد عنده عقدة نقص طلعها عليه.

هز الشيخ رأسه في أسف يؤيد كل كلمة قالتها. لقد عرّته أمام نفسه، كشفت تزمته المزيف، كيف ترك ابنه المفضل لقمة سائغة لحاسديه الذين طالما استكثروا عليه شهادة الطب وكأنه لم يسهر الليالي الطوال دون نوم ليتحصل عليها؟ ثم استكثروا عليه زوجته المحبة، وكادوا يموتون كمداً حين سافر للعمل بالكويت، ثم ها هم وجدوا أخيراً ما يفرحون به، وأكلوا لحمه بلا رحمة. قاطعت شيماء أفكاره قائلة:

- انت لو شفته يا عمو هيصعب عليك والله. صدقني يا عمو أحمد ابنك نضيف قوي. هو محتاج لك، ومحتاج لاخواته. بالله عليك لتسامحه وتكلمه.

مست كلماتها شغاف قلب الشيخ العجوز. دمعة صغيرة تسللت من بين أجفانه المثقلة بالعمر. استأذن يحضر لها ضيافتها منتوياً تصحيح هذا الوضع. انتوى التنازل عن كبره الذي كاد يورده ويورد ابنه معه المهالك. نظرت له شيماء بعطف وهو يمد يده من تحت النظارة يمسح الدمعة الثقيلة جداً.

**

يجثم عليه الحزن. كلما قلب في رسائله وجد زملاءه يرسلون له روابط أخبار الوباء في مصر وفي الكويت وهم لا يعلمون ما تفعله هذه الأخبار برجل وحيد في الغربة.

ينفرد به الشيطان في جلسته الليلية المعتادة يحتسي الشاي ويضع ساقاً على ساق يتنمر عليه ويجلده، يتزود بما قالته حماته في

المكالمة الأخيرة، يقول: لأول مرة يحدث هذا في الكويت.. الكويت المعروفة بالمال و الرخاء ستخرب بسبب وجهك.

يهز الشيطان رأسه في أسف مصطنع ويقول:

- لقد ظننت أن الله يستجيب دعاءك. أين الله الذي تدعوه ؟ لقد تخلى عنك وتركك أو .... أو أنه ليس موجوداً أصلاً!

كانت حالة أحمد يرثى لها، لم تكن أول مرة يتخطفه الشيطان هكذا. ما أكثر الليالي التي بات فيها معذباً بشكوكه، مختنقاً بشبهاته. كان يمسك رأسه المشتعل بالوساوس ويذكر الله حين فوجيء بمكالمة من أبيه الشيخ عبد الله. لم يصدق عينيه وأجابه فوراً. قال الشيخ بصوت بدا يحمل شيئا من خجل:

- السلام عليكم و رحمة الله. ازيك يا احمد يابني؟

هل جرب أحدكم المطر البارد الذي ينزل على قيظ المدينة المنورة أو في مساء يوم عرفة؟ هكذا كانت كلمة أبيه.. كاد أحمد يبكي وهو يجيب والده:

- الحمد لله.. ازيك انت يا بابا؟!
- بخير يابني..

لم يكن الشيخ بارعاً جداً في الحديث العاطفي. حاول أن يعد كلاماً يصلح للموقف ، فسبقه أحمد قائلاً:

- أنا عاوزك تسامحني يا بابا، ماتصدقش حد .. أنا....

.قاطعه الأب قائلاً:

- خلاص يا أحمد .. لو ربنا سامحك ما يهمكش أي حد في العيلة الزبالة دي.

تعجب أحمد من قول أبيه. يبدو أن سمعة أحمد قد مُضغت مضغاً. تكلم الأب مرة أخرى قائلاً بصوت بادي الندم:

- سامحني انت يابني ..أنا كنت بزقك زق عشان تكفر والعياذ بالله.

أخذ الأب يعظه في رفق مستحضراً آية أو حديثاً شريفاً كعادته. أحمد لا يؤمن بالصدف، عندما يجلس في شقته منفرداً، وألفا كيلومتر من الأرض بينه و بين أحبابه، بالإضافة لقضبان الوباء، وانقطاع الطيران، وتوقف نهر الاوراق عن الجريان، والشيطان يسبه ويتهمه بالنحس ويزرع أرضه بالشكوك، فيجد أباه الذي كان ساخطاً عليه يتصل به ويتلو له "لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم" ثم الآية التي تليها "لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون و المؤمنات بأنفسهم خيراً". لا يبدو هذا صدفة أبداً.

واصل الأب الكلام الذي لم يكن أحمد ليحتاج أدق منه في تلك اللحظات. أخذ الأب يحكي:

- انت عارف اني اتسجنت وانا في سنك؟ اتاخدت ظلم، دخلت أصلي في مسجد معرفش ان فيه قلق فأخدوني مع بقية اللي اتاخدوا. الشيطان استفرد بيا وقعد يقوللي انت نحس، حبكت معاك الصلاة، اديك اتحبست! تصدق يا أحمد يابني؟ الفترة اللي اتحبستها هي اللي خلتني الشيخ عبد الله اللي انت سامعه دا. عمري ما جربت لذة العبادة اللي دقتها في الحبس، لا قبل ولا بعد. ربنا كان بيهون عليا كتير و أمك -الله يرحمها- كانت تجيلي معيطة وتستغرب أنا ازاي مستحمل. حفظت القرآن واتعلمت

كتير. عرفت الله بحق، وحسيت بنعمه . ما تزعلش يابني، كل اللي جرالك دا بقدر الله، وإن شاء الله ربنا هيصلح أحوالك ويجمعك بزوجتك وولادك. اجمد كدة واصبر . كل منحة لازم قبلها محنة. اصبر يابني، واعمل قرش ينفعك لما تكبر ما تبقاش زي أبوك.

كاد أحمد يقسم أن أباه قد سمع دواخل نفسه. إن الذي علم بما يدور في عقله هو الذي نهز الشيخ في مصر ليتصل به وليسمعه هذه الكلمات. تمتم أحمد" آمنت بالله"

**

يوليو ٢٠٢٠

أخيراً بدأت الأبواب تتفتح، عادت الحياة للهيئات الحكومية في الكويت، أخيراً يظهر أمل في الأفق أن الحبس الانفرادي للطبيب الشاب قد قارب على الانتهاء.

يستأنف رحلة الأوراق التي توقفت. السير ببطء أفضل من الجري في المكان. أرسل له الكفيل سائقه عبد الرزاق في أحد رحلاته لأحد الإدارات. نظر أحمد للشقة الصغيرة وهو واقف أمام الباب يغادرها لأول مرة منذ أربعة أشهر. يودع الحبس، ويودع المشاعر التي لن يلتقي مثلها أبداً بحلوها ومرها. أغلق باب الشقة ونزل لعبد الرزاق.

أرسلوا الفتى الهندي في سيارة قديمة نسبياً، وقد خرب فيها جهاز التكييف. الساعة التاسعة صباحاً ودرجة الحرارة ٤٠ مئوية . أحمد تعلم الأدب، وفي حضرة الفتى المدفوع بالأبواب ذي الطمرين يجب أن يقف في احترام. سلم عليه أحمد بتواضع غير مصطنع

ورحب به بود ومرح. بدا السرور على عبد الرزاق من معاملة أحمد الطيبة.

انطلقا بالسيارة الساخنة، وقد اشترى عبد الرزاق زجاجة ماء وأعطاها للطبيب. شكره وشرب الماء قبل أن يسخن، وقد بدت درجات الحرارة غير مبشرة. عبد الرزاق يحبس سيل عرقه بعدد كبير من المناديل الورقيه يضعها في ياقة قميصه فبدا مضحكاً رغم مأساوية المشهد.

سأل عبد الرزاق بابتسامة:

- باتشا زين؟

فهم أحمد بشكل ما أن " باتشا" تعني الأطفال. فضحك وقال :

- إي زين الحمد لله.

لم يستطيعا للأسف تبادل أكثر من هذا. سارت بهما السيارة الخربة. تمالك نفسه عن أن يسب الرجل صاحب السيارة الذي لم يرحم ذلك العامل المسكين وهو يكاد ينصهر داخلها.

الكويت رغم أنها تبدو صغيرة على الخريطة إلا أنها تتمدد على الأرض فتبدو المسافات بعيدة ..أو لعل جهاز الميكروويف الذي يجلسان داخله يوحي له بذلك!

نسمة باردة حرارتها ثلاثون درجة تسللت خلال اللهب ولامست وجه الطبيب فتمتم: "الحمد لله ". الإشارة تتوقف دهراً.. يستعر اللهب مجددا.. عليك أن تختار ما بين الشي بلفحات الهواء الساخن، أو تغلق النافذة لتنضج بالبخار.

في الطريق اكتشف السائق أن المكابح ليست بخير، وخيالات الموت عجناً ثم شياً أصبحت بادية للعيان. ورغم كل هذا ضحك

أحمد وضحك السائق يسخران مما هما فيه. اتصل أحمد بإبراهيم قائلا بسخرية:

- ازيك يا ابو خليل ...وصيتك العيال! أنا هموت قبل ما أوراقكم دي تخلص!

**

تواترت أنباء عودة الطيران بين مصر والكويت في الأول من أغسطس. هذه الأنباء جعلت صالح يتكاسل عن إتمام حصصه التي يقوم بتصويرها. بدأ يعد نفسه للسفر ويكتفي فقط بحصص شروق و إيمان اللتين تقترب مواعيد امتحاناتهما. معنوياته مرتفعة وحماسه مشتعل. يعلم أن موسم امتحانات الثانوية كان ليكسبه الكثير من المال. بالنسبة له العودة لمنطقة الأمان هي اختيار أفضل.

على الجانب الآخر بدأت سمية تقلل عدد الطلبات اليومية تدريجياً وأعلنت على صفحتها اعتذارها عن الاستمرار من أول الشهر المقبل. التعليقات انهالت تملأ الصفحة ما بين مهنئين بعودة أبو محمد، وما بين متأسفين لحرمانهم من طعامها الطيب.

تنظيف المنزل يجري على قدم وساق. غسل السجاد والستائر يتم كعادة المصريات الأبدية. كانوا ينتظرون عيدين متتاليين: عيد الأضحى، واقتراب عودة الأب الذي حرموا منه لما يزيد عن سبعة أشهر.

سمية تبدو كعروس تستعد لزفافها. يستيقظ محمد في صباح ذلك اليوم يفرك عينيه، ثم يضحك على والدته وابنتها وهما تغمران قدميهما بالماء الساخن وتضعان قناعين ملونين من مادة ما تعيد الشباب، ومعجون الصبغة اللزج يطل من تحت غطاء الرأس، وانهمكت الأم في برد أظافرها بعناية. ضحك الشاب الصغير حتى

كاد ينقلب على ظهره وهو يرى أمه ونسختها الأصغر تجلسان في ردهة المنزل بهذا الشكل المزري. نادى محمد على أخيه الصغير:

- الحق يا عمر، الزومبيز عندنا في الصالة.

خرج عمر في فضول وفي يده جهازه اللوحي. ضحك مع محمد حتى شبعا. تكلمت منة تكاد تبكي:

- عاجبك كدة يضحكوا علينا؟

قالت سمية بهدوء وهي تنظر لأظافرها:

- سيبك منهم ، ايش فهمهم دول؟ داحنا الجيران بيتصلوا يقولونا يا جدعان حموا ولادكوا الريحة واصلة عندنا!

ضحكت منة هي الأخرى وهي تخرج لسانها للصبيين. قال محمد لعمر:

- الحمد لله يا عمر ان احنا رجالة!

ملأت الضحكات البيت الدافئ في حي السالمية ينتظر عودة الاب ليكتمل ضياؤه.

**

في العاصمة، كان الطبيب الثلاثيني قد سمح له بالانتظام في عمله بعد إصدار وثيقة إقامته بالكويت. بسرعة أثبت نفسه في المستشفى فقد كان يعمل في ظروف أصعب بكثير في مصر، أجبرته على تعلم ما لا يتعلمه الطبيب في أي مكان به خدمة صحية عالية الجودة. المضحك أنه تلقى عتاباً على محاولته التوفير على الأهالي كما كان معتاداً في مصر. الناس هنا – وهذا جديد عليه – لا

يهتمون بالسؤال عن سعر الخدمة ، ولكن يسألون عن الجودة و الفخامة.

نفسيته تتحسن وقد اصطلح مع أبيه وزوجه، ولم يكن يتوقع حدوث هذا بهذه السرعة. كان يشعر بشهور حبسه الانفرادي في بطئها وثقلها كجنزير دبابة تمر على صدره. بمجرد أن انفرجت الأزمة يهيأ إليه أنها كانت كنوباتجية سيئة من نوباتجيات مستشفى الزقازيق العام لا تزيد مدتها – على صعوبتها – عن أربعة وعشرين ساعة. تتردد في عقله العبارة النبوبة " لا، والله ما مر بي بؤسٌ قط، ولا رأيت شدةً قط" .

ورغم تفكيك قضبان الكورونا واحداً فواحداً إلا أن قضبان العنصرية ما زالت قائمة، صلدة، وتزداد عدداً وصلادة. لم يتخيل أن الأمر يستفحل، فلم يكن من متابعي برامج الكويتيين المفضلة سواء في التلفاز أو على مواقع التواصل. زملاؤه يتحدثون يوميا عن القيود التي تفرض على المقيمين، و السباب الذي يتلقاه المصريون من كويتيين عبر وسائل التواصل، فيردونه أضعافاً. فتنة منتنة، روائحها مرعبة لكل مغترب يتصبر بمشقة من أجل لقمة عيشه. الغريب أن الكويتيين الذين يتعامل معهم كآباء لمرضاه لم يتلق منهم سوءا حتى اللحظة. انفصام بين العالم الواقعي والعالم الافتراضي، وبينهما حبلٌ واه يكاد يتحول إلى حقيقة خشنة كلما ازدادت متابعات الناس وتعليقاتهم وانفعالهم بما يطلعون عليه سواء الحقيقي منها والكذوب. حاول أن يطمئن نفسه، لو لم يتيسر لي جلب عائلتي فلنكمل هذا العام بأي شكل ثم أعود لمصر ولأنتظر أي فرصة أفضل، أو فلأبق بجانبهم ولو اضطررت لأكل الحجارة.

**

تعود شيماء والصغيران للبيت أخيراً. كان زياد يكاد ينبت له جناحان من شدة السعادة، وشيماء كذلك. اتفقت مع صديقتها الجديدة في الطابق العلوي أن تترك عندها الصغيرين فترة ذهابها للعمل. يتعجب المرء من تدابير الله. كثيراً ما تحملك الأقدار من قفاك وتضعك في طريق غير الذي أردت لنفسك، فتبكي و تدبدب كالأطفال، ثم يمضي وقت طويل أو قصير قبل أن تدرك أن يد الله أمسكت بك وأنت مقبل بحماس على هلاكك. تكتشف أن الله أخذك إلى حلول بسيطة واضحة كالشمس و أنت بمنتهى الحمق كنت تعطيها ظهرك.

أصبحت شيماء أكثر راحة رغم عدم رضا والدتها عن هذا الحل. تذهب لعملها وأولادها مع أولاد نهلة يلعبون ويستمتعون بوقتهم. ويالللعجب! إنها تطمئن على ولديها أكثر، فبيت نهلة ليس به تليفزيون يصب قاذوراته الصريحة منها والمخفية على الأطفال . تتركهم يلعبون بعض الوقت على أجهزتهم اللوحية أو أجهزة الألعاب، وبقية الوقت تحكي لهم الحكايات، وتملأ بيتها – لتعويض غياب التلفاز – بكتب التلوين وقطع الصلصال. لقد كانت نهلة حلاً سماوياً لمشاكلها. فالأصدقاء رزق مثل المطر ، ومثل ورقة النقود المنسية في جيب سترتك، ثم تعثر عليها في أشد الأوقات احتياجاً لها.

هي الآن تمسك مقود حياتها بنفسها. تتقدم بشكل جيد في رسالة الماجستير. تقرأ أكثر وأكثر في مجال العلاقات. أصلحت الكسور الأخيرة التي أصابتها و زوجها، وتسعى لإصلاح الكسور القديمة. مازالت الكسور تترك آثاراً. لم يخل قلبها بعد من ألم تعرضها للخيانة، ولكنها تتعامل مع هذا الألم كالآثار المتبقية بعد التعافي من

كارثة صحية. لن تختفي ربما، ولكن على المريض أن يتعلم التأقلم عليها والتعامل معها.

يحث أحمد وشيماء قلبيهما على الإنبات من جديد. وضعت طعام الغداء للطفلين بعد العودة من عملها. التقطت لنفسها معهم ومع المائدة صورة مرحة و أرسلتها لأحمد.

" السفرة دي مش ناقصها غيرك "

أجابها بصورة قديمة لهما معاً في أيام زواجهما الأولى وخلفهما البحر، وهو يحيطها بذراعه ويضحكان معاً ضحكة تقطر حباً و أماناً.

" فاكرة الأيام دي ؟ "

" يا ريتها ترجع"

"مفيش أيام بترجع ... لكن ممكن أيام أجمل منها تيجي!"

أغسطس ٢٠٢٠

استعد صالح للسفر بحماس. أخيراً سيعود لأولاده وزوجه، وللقمة عيشه. ودع الحاج حسن، وتلميذتيه اللتين أتمتا امتحانهما وتنتظران ظهور النتيجة. سيستعيد نظام حياته وسيرتب ما حدث

فيها من فوضى. ودع إخوته، وانطلق محملاً بدعوات حماته في السيارة البيجو التي تحمل حقائبه.

المصريون لا يعودون للخليج ببساطة؛ إنهم يعودون لغربتهم بحقائب الطيور البلدية، والزبدة، والفاكهة، وكل ما يمكن أن يخفف وطأة غربتهم المالحة. لماذا تتركها إذن يا صالح وأنت تحب ناسها وطعامها وهواءها؟ سؤال متأخر جداً ذابت إجابته على مدار خمس عشرة سنة. لقد طالت الغربة حتى " ظن " أن الغربة هي وطنه.

أنهى الإجراءات المعتادة، وزاد عليها تحليل ثمنه ألفا جنيه للتأكد من خلوه من الفيروس. السعادة بادية على وجوه العائدين إلى أرزاقهم وأسرهم. عشرات القصص تمشي في أرض مطار القاهرة. كل منهم له حكاية لا تقل قسوة عن حكاية فراقه لأولاده لما يقرب من ستة أشهر.

اتخذ مقعده في الطائرة يراسل زوجته بعبارات الشوق والسعادة. تأخرت الطائرة عن الإقلاع حتى سرى القلق في نفوس الراكبين كالوباء.

ثم ارتفع صوت قائد الطائرة: "سوف نضطر إلى إنزال الركاب غير الكويتيين المتواجدين على متن هذه الطائرة.. نعتذر على هذا الظرف الاستثنائي الخارج عن إرادتنا.. شكرا لتفهّمكم".

**

تسلم أحمد الراتب الذي لم يكتمل حتى اليوم. الرجل يريد توفير كل فلس مادام لا يحقق مكسباً بعد. نوه عن ضيقه من هذا الأمر إلى كفيله، ولكن في قرارة نفسه لم يكن ساخطاً.

مر عبد الرزاق بعيادة الدكتور أحمد في المستشفى بعد خلوها من المرضى فصاح أحمد مرحباً. قال بعض الكلمات الكويتية التي

يظن عبد الرزاق يفهمها، وبالفعل أصبح بينهما تواصلاً عبر لغة مكونة من خمس أو ست كلمات!

فكر أحمد للحظات وقد هم عبد الرزاق المهدّد دائما بالتقريع بمغادرة المكان لتوصيل العاملين. ناداه أحمد بسرعة، وأخرج من جيبه ورقة فئة العشرة دنانير ووضعها في يد الرجل الذي دهش من ضخامة المبلغ. قال أحمد كما كان معتادا في مصر:

- كل سنة وانت طيب!

فرح الفتى وبدا عليه أن هذا المبلغ كان منقذاً له. لم يفهم عبارة حمد و لكنه قال بامتنان جم:

- شكراً!

غادر عبد الرزاق و جلس أحمد يقلب في هاتفه المحمول و الشيطان يوسوس : يا أحمق! عشرة دينارات دفعة واحدة؟ هذا سفه! كيف ستكمل الشهر؟

كان أحمد قد أتم كورسه التدريبي في فهم تلك الوساوس، وقال لنفسه بصوت مسموع: ما نقص مال من صدقة!

تلقى اتصالاً على الهاتف الداخلي يستدعونه للطوارئ فوراً. انطلق كالرصاصة نحو الاستقبال، ووجد طفلاً مزرقا يبدو في مثل عمر طفله زياد. أسرع نحو الطفل مع زملائه وفريق التمريض . في أقل من دقيقة قرر أن الطفل يحتاج أنبوبة حنجرية. لم يلتفت إطلاقاً أنه خلع كمامته ليتنفس حين كان جالساً بالمكتب.

دقائق مرت كعمر حتى عاد الطفل يتنفس ويعود أكسجين دمه للارتفاع، وتوجهوا به للعناية المركزة. والدا الطفل الكويتيان يقفان خارج قسم الطواريء في فزع ورعب. جاءتهما الممرضة الهندية تطمئنهما وأشارت نحو أحمد، ففهم أنها توضح لهما أن هذا الطبيب

هو من أنقذ ابنهما. أقبلا نحوه يشكرانه بحرارة فحياهما برأسه ويده على صدره و دون كلام تقريباً.

عاد للمنزل، واستحم مما علق به من ميكروبات، وجلس باسترخاء وراحة، وكوب الشاي بجواره. أشد لحظات حياته سعادة هي التي ينقذ فيها طفلاً كان على شفير الموت. رفع عينيه للسماء يناجي ربه :

- سبحانك يا رب .. انت اللي بتعمل كل حاجة واحنا اللي بناخد الشكر والفلوس !

وجد رسالة من شيماء:

" حبيبي باركلي .. حددولي معاد للمناقشة "

أرسل لها بسرعة " ألف مبروك يا قلب أحمد.. يا ريتني عندك "

" انت عندي ومعايا في كل لحظة"

" ياسلام! انا مش قادر استحمل"

الكثير من الوجوه الضاحكة..

" مش لازم حد يحضر خالص، المهم اخلص منها ... دي كبة !"

" آه والله .. المهم نخلص .. عقبال الامتحان النهائي".

**

غضب خطِر ذلك الذي أصاب صالح في ذلك اليوم. لم ينبس ببنت شفه وقد أخذ الركاب المنتكسون يثرثرون مع وسائل الإعلام. أنهى إجراءات الحصول على حقائبه، وقفل عائداً إلى الزقازيق

بأول سيارة أجرة وجدها. لم ينطق بحرف طوال الطريق. كان يشعر أنه لو تكلم لأحرق من يمر أمامه... يتنفس ناراً ودخاناً .

كان يتجرع مرارة العنصرية في الكويت أحياناً على مدار فترة عمله، ولكنهم هذه المرة كما لو كبلوه وألقوه أرضاً وداسوا على عنقه وسكبوا العلقم في جوفه حتى كاد نفسه أن ينقطع. عاد للزقازيق منكسراً حاملاً حقائب السعادة التي لم يكتب لها الوصول للأولاد.

علم إخوته بعودته وراحوا يتصلون به، وهو صامت لا يرد على أحد. يشعر أنه يحتاج طناً من ثلج ليهديء غليان دماغه. يشعر أنه ملطخ بالإهانة، وأنه عاجز عن رفع عينه في وجوه إخوته.

في عصر اليوم التالي قادته قدماه للحاج حسن لعله يجد بعض السلوى.

"ماتزعلش يا مستر !"

قالتها شروق بتعاطف، وقد بدا أستاذها أحمر العينين مظلم الوجه على غير عادته. قدم الحاج حسن له مشروباً باردا فقد كان شكل الرجل مقلقاً.

جاءت شيماء من الخارج بعد عودتها من الجامعة وقد تركت ولديها مع شروق منذ الصباح بناء على طلبها، فوجدت صالح جالساً مع أبيها وقد وصلها طبعاً أنباء ما حدث له. رحبت به ثم سألته بقلق؛وقد أكسبها طول الاحتكاك بالمرض حاسة خاصة تنبئها أن الرجل ليس بخير:

- حضرتك كويس ؟ شكلك تعبان!
- مصدع بس.
- طب ارتاح، هجيب جهاز الضغط.

- مفيش داعي يا دكتورة.
- لا يا مستر .. مش هناخد دقيقة.

جلبت جهاز الضغط الذي تحتفظ به في بيت أبيها للطوارئ، وشرعت في لف حزامه حول ذراع الرجل محتقن الوجه. لم تلبث أن هتفت في ذهول:

- إيه دا يا مستر صالح ؟ انت ضغطك فوق ال٢٠٠ .. لازم تروح الطوارئ، كدة خطر عليك

كان يائسا لأبعد حد.. بدا لها أن كلامها لم يحفزه بما يكفي ليخاف على حياته. قال:

- لا يا دكتورة ما بحبش المستشفيات.. مش هروح في حتة.

قال حسن فوراً:

- يعني ايه مش هتروح؟! عاوز تموت نفسك يعني؟!

أخذت شيماء و شروق تحثانه على الاستجابة. نظر لهما لثوان. تذكر محمد ومنة وعمر. يعلم حالهم بعد خيبة الأمل تلك. سيكون الأمر قاصماً لهم ولزوجه أن يترك نفسه فريسة سائغة للموت. نهض بتثاقل، واصطحبه الحاج حسن وشيماء لأقرب مستشفى.

**

كانت سمية تبكي بحرقة، وبجوارها منة تربت على كتفها وقد أصابتها عدوى البكاء. محمد الشاب الصغير كان غاضباً أيضاً. وسائل التواصل أصبحت نهراً من الحمم. مصريون يسبون الكويت

التي قضى فيها جل عمره وعرف فيها جميع أصدقائه، وكويتيون يسبون المصريين الذين يحمل دمهم و جنسيتهم. الفريقان يغرسان ألسنتهم الحداد في لحمه.

متى ينتهي هذا الخوف؟ متى تنتهي الإهانات؟ كيف سيقابل الأولاد زملاءهم في المدرسة إن كتب البقاء؟

ارتفع رنين هاتف سمية متلقياً اتصالاً من صالح. حاولت مسح دموعها؛ حتى لا تزيد حال زوجها سوءً. لم تكد تبدأ حديثها المواسي حتى قاطعها بحزم:

- أنا مش راجع الكويت تاني.

ابتلعت سمية لسانها و هي تنظر له بعجز، بينما أردف بمرارة:

- نزولي من الطيارة مكسور ومتهان عمري ما هنساه يا سمية.

قالت سمية في خوف:

- انت بتتكلم جد؟!
- أيوة جد.
- فكر بس يا صالح، ممكن يفتحوا الطيران الشهر الجاي..
- وانا مش هستناهم يعطفوا عليا.
- طب نعمل ايه؟
- هتبيعي السيارة، وعفش الشقة، وهتجيبي شهادات الولاد من المدارس، ولما تجهزي كل حاجة اقطعي تذاكر ترانزيت.
- انت بتتكلم كأن الموضوع سهل!

- إن شاء الله سهل.

تشعر بفزع المقبل على المجهول. قالت بصوت مرتعش:

- حتهد كل حاجة وتبدأ من الصفر وانت عندك ٤٥ سنة؟

- مين قال صفر؟ أنا معايا فلوس.. إن شاء الله ممكن أأجر مكان واشتغل.

- الناس ما تعرفكش لسة .. هتاخد سنين.

- أول مرة تحبطيني يا سمية.

- خايفة!

- الرسول هاجر و هو خمسين سنة!

- عليه الصلاة و السلام!

- ماتخافيش من حاجة .. ارجعوا ونفضل سوا، إن شالله ناكل طوب، المهم تبقوا جنبي.

- عندك حق .. المهم نكون مع بعض!

**

ارتفعت حرارة الطبيب المغترب ارتفاعاً حاداً وتمكن السعال الجاف من صدره يشقه كالسكين. حاول عزل نفسه على غرار ما حدث مع شيماء لعله يتحسن، و لكن دون جدوى. كتم الخبر عن زوجه ووالده، وكلما اتصلوا به ادعى انه في العمل.

أرسل له الشاب محمد الصغير أنه وعائلته سيسافرون إلى مصر أول سبتمبر، وسأله إن كان يريد إرسال شيء معهم. دمعت عينا أحمد والمرض يدك عظامه دكاً. تمنى لو يحملوه هو شخصياً معهم.. لم يستطع الرد.

شريط حياته يمر أمامه.. منذ كان طفلاً يلعب مع إخوته، وتصيح بهم أمهم ليكفوا عن الشجار. تذكر أيام المدرسة والجامعة، استرسل في ذكرياته مع شيماء منذ وقعت عينه عليها لأول مرة.. تذكر كل التفاصيل الدقيقة.

تذكر رفض والده لزواجه، ثم قبوله بعد عامين من المشكلات والعناد. تذكر يوم زفافه وشكل شيماء في فستانها الأبيض. مد يده وهو ملقى في فراشه كشجرة مقطوعة الأوصال يلتقط محموله، يتوقف عند صورة زفافهما التي يحتفظ بها يتأملها مطولاً.

تذكر الحب وتذكر الخلافات، خفق قلبه وهو يتذكر يوم تصالح مع شيماء وردها لعصمته، ثم تذكر زياد و مهند. يشتاق لتقبيلهما بشدة. أخرج صورتهما الأخيرة على المحمول. قرب الشاشة لفمه يقبلها وأنفاساً حرارتها تفوق الأربعين تلفح الشاشة.

تذكر السفر وأيام الحظر. وقع في قلبه أن الله تعالى كان يعده للقائه. شهر كامل من الاعتكاف كالرهبان، لا أحد يكلمه، ولا تلفاز يشغله، ولا طعام يثقله عن الصلاة. تمتم بصوت خافت متحشرج: "أنا مين يا رب عشان تعاملني كدة ؟ أنا والله ما استاهل!

**

كان ذلك اليوم هو يوم مناقشة رسالة الماجستير الخاصة بشيماء. وقفت في القاعة قلبها يصل إلى حنجرتها. أنهت مناقشتها وهنأها الجميع وقلبها لا يكف عن الدبيب. تمنت أن تفتح الاتصال بزوجها ليراها وهي تناقش رسالتها، ولكنه لا يجيب.

كان صالح مدعواً لحفل المناقشة. اتجهت شيماء نحوه تطلب منه رقم إبراهيم ذاك . سألها بقلق:

- خير يا دكتورة؟!

- الدكتور أحمد ما بيردش عليا وأنا قايلاله المناقشة النهاردة. كلم لي إبراهيم من فضلك يا مستر.. هموت من القلق!

- إن شاء الله خير .. أنا باتصللك بيه اهو.

فتح الاتصال فقال إبراهيم ، وقد فتح لها السماعة الخارجية لتسمع المكالمة:

- هلا يا استاذ صالح

- هلا يا ابراهيم .. هو الدكتور احمد فين ؟

- تعبان شوية والله.. هو بلغ الكفيل إنه مشتبه كورونا وإنه هيفضل في البيت.

تجمد الدم في عروق شيماء. لم يخبرها زوجها بأي من هذا. حاولت أن تسيطر على مشاعرها بحيث لا يعلم حماها المتواجد في القاعة بهذا الأمر.

قال صالح برجاء:

- الله يرضى عنك يا إبراهيم حاول تطمنا عليه، الدكتورة شيماء مراته بتقول ما بيردش على التليفون.

- ربنا يستر .. حاضر هشوف الموضوع دا وأكلمك.

**

انطلقت سيارة الإسعاف المجهزة تحمل الطبيب الشاب إلى مستشفى الكويت الميداني، مضطرب الوعي، حرارته مرتفعة مثل جمرة، ورئتاه متسارعتان كماكينة خربة لا جدوى منها. على الفور تم إدخاله للعناية المركزة و قد وشت علاماته الحيوية برجل يقف على شفير القبر.

زملاؤه في العمل يتحدثون بخوف وتعاطف عن إصابة أحمد. مع انخفاض أعداد الإصابات بحلول شهر يوليو كان كثيرون يتخلون عن الحذر، ومنهم أحمد الذي أقبل يدس الأنبوبة الحنجرية لطفل دون قناع واق حتى.

شيماء قد غادرتها روحها، عاصفة متهورة تعصف في صدرها، قلبها هواء ومعدتها منقبضة منذ وصلتها الأخبار.

اليوم الذي طالما انتظرته -وهو يوم مناقشتها- سيظل أسوأ ذكرى مرت عليها على الإطلاق. انزوت في غرفتها القديمة ببيت والدها تصلي وتدعو الله أن ينجي زوجها. تقرأ في المصحف لا تعي ما تقرأ وتكاد لا ترى الكلمات من دموعها.

في ركن آخر من مدينة الزقازيق كان صالح يقلب صفحات التواصل وقد امتلأت بصور الشاب المكافح المتليفة رئتاه في العناية المركزة بالكويت. كانت المرة الاولى التي يراه فيها. اجتمع الناس بشكل غريب عليه، ينشرون صوره ويدعون له بالنجاة.

تعمد بعضهم قص قلوب الناس قصاً بنشر صوره مع طفله مهند حين كان عمره أشهر قليلة و يقف بجواره زياد وكان أصغر سناً. تمتم صالح " يا رب .. نجيه يا رب عشان ولاده."

الشيخ عبد الله كان جالساً على مصليته منهاراً. ابنه المفضل يسرع نحو الموت بلا مكابح. اجتمع في ردهة البيت الإخوة الثلاثة وأزواجهم، ولم يرغب الشيخ في لقائهم. دخل عصام إلى غرفة والده، والشيخ يتفطر كبده من البكاء. اقترب من أبيه يربت على كتفه:

- اهدا بالله يا بابا .. صحتك مش مستحملة.

تمتم الشيخ:

- يا رب اجعل يومي قبل يومه.

هتف عصام:

- بالله عليك يا بابا بلاش الكلام دا .. إن شاء الله ربنا قادر ينجيه.

كان الأب ينشج بصمت، وسالت دمعة ابنه الأكبر. أقبلت زوجة عصام تطمئن على حميها فأشاح بوجهه بعيداً عنها.

في مثل تلك الأيام نندم على كل دقيقة أهدرناها. نتمنى لو تعود فلا نصدق تلك النميمة، ولا نقول تلك الكلمات، ولا نغلق الهاتف، ولا نتخلى عن الذين نحبهم . ها هم يستعدون جدياً للرحيل، ولا شيء في العالم سيرد هذا القطار عن الانطلاق.

**

" أنا آسف يا ابراهيم ..ما ظنش انه هيكمل . . الله أعلم."

قالها الطبيب المناوب بالمستشفى الميداني لإبراهيم عبر الهاتف بصوت حزين منخفض للغاية. سكت إبراهيم مطولاً.. شعر في تلك اللحظة بأموال العمولة التي تقاسمها مع مكتب السفريات في القاهرة تحرقه. لقد استدان الطبيب الشاب ليدفع ثمن تأشيرة وفاته. في ذلك الوقت، وحين كان أحمد لا يزال بمصر تحايل عليه إبراهيم وقال إنه لابد من دفع مبلغ العمولة كاملاً وإلا لن يستطيع أن يرسل له تأشيرة الدخول للكويت. كان من الممكن أن يكون أقل طمعاً هذه المرة.. هذه المرة فقط !

استفاق من شروده على صوت طبيب العناية المركزة يقول له:

- الدكتور عاوز يقوللك حاجة استنى اما أقرب له.

سكت قليلا وكأنه يستمع بصعوبة لصوت الشاب المكمم بأجهزة التنفس. ثم أكمل:

- بيقوللك يا ريت تحضر له شنطته وتكلم ...تكلم أم محمد تاخدها معاها وهي نازلة مصر. وبيقوللك ....

سكت الطبيب برهة اخرى ثم قال:

- في شنطة بيضا في الدولاب بتاعه في آخر رف عاوزك تجيبها هنا في المستشفى، وسلمها لأي حد من برة هي وتليفونه.

**

كانت إدارة البناية قد عقمت شقة أحمد بالكامل. طلب إبراهيم مفتاح الشقة من الحارس وصعد إليها. جمع حاجيات الطبيب الشاب في حقيبته الكبيرة. لا يريد أن يتخيل كيف سيكون إحساس زوجه وأهله عندما يتسلمونها. الله أعلم أين سيكون مدفنه!

أخرج الحقيبة التي طلبها الطبيب بالذات.. أصابه الذهول،فالحقيبة تحوي ثوباً أبيض وكتب عليها من الخارج "كفن شرعي". من أين أتى بهذا؟! ولماذا؟! لماذا يحتفظ شاب ثلاثيني مقبل على النجاح والمال كفناً في خزانته؟! أم إن الموت متوقعٌ جداً وقريبٌ جداً لهذه الدرجة.. لدرجة أن الناس يستعدون له بينما هو – أي إبراهيم- مشغول فقط بجمع مال لن يبقى.

نزل إبراهيم يجلس بجوار السائق عبد الرزاق وقد غشيه حزن لا نهائي. الفتى الهندي يقود السيارة صامتاً يحمل البؤس في عينيه، وازداد بؤسه حين رأي الحقيبة التي تحوي الثوب الأبيض في يد إبراهيم. سأل بلغته الركيكة وبصوت مرتعش:

- دكتور مات؟

أجاب إبراهيم بحزن:

- مو مات بعد!

أكملا الطريق للمستشفى الميداني بدون كلمة واحدة. توقف بالسيارة بعيدا ونزل إبراهيم في شمس الكويت الحارقة ليترك حمولته عند حارس البوابة. عبد الرزاق يتذكر مواقف الطبيب الشاب بحزن عميق. رفع كفيه يتمتم بلغته دعاء لا يفهمه سواه وسوى الله.

سبتمبر ٢٠٢٠

مرت سمية وأولادها الثلاثة يجرون حقائبهم التي تدرج على عجلات من بوابة الوصول بمطار القاهرة الدولي. ترك الأولاد ما يحملونه وركضوا إلى أبيهم الذي أخذ يضمهم و يقبلهم كيفما اتفق. تبعتهم سمية تركض بها روحها إلى زوجها الذي لم يستح هذه المرة وضمها وقبل رأسها. نظر للحقيبة الكبيرة التي تجرها. سأل في شجن:

- هي دي؟!

قالت سمية بوجوم:

- أيوة!

نظرا لعيون بعضهما طويلاً، ولم تستطع سمية منع دمعة كبيرة ملأت جفنها من الانسدال. أحاطها زوجها بأحد ذراعيه وتسلم منها الحقيبة التي كتب عليها بخط كبير " د. أحمد عبد الله السيد"، وغادروا المطار إلى السيارة البيجو التي انطلقت بهم للزقازيق.

**

رحبت شيماء بسمية في شقتها، وكلاهما اتشحتا بالسواد. جاءتها سمية وهي تجر الحقيبة الكبيرة. لم تكد تراها شيماء حتى انفجرت بالبكاء، فدفعتها سمية برفق لتجلسها على أحد المقاعد وتجلس جوارها تربت على كتفها. لم تمنع سمية دموعها هي أيضاً. بعد دقائق عدة تكلمت شيماء بصوت متهدج وهي تنهض:

- قهوتك إيه يا مدام سمية؟
- ارتاحي بالله عليكي.. أنا مش عاوزة حاجة.

أجلستها سمية وفتحت حقيبة يدها تبحث عن شيء ثم أخرجت هاتف أحمد المحمول ومدت به يدها لشيماء. نظرت إليه شيماء وهي ترتعد، أخذته منها وضمته إلى صدرها، وانتابتها نوبة أخرى من البكاء.

قالت سمية بعطف:

- قولي لا إله إلا الله يا دكتورة!

كررت شيماء وراءها بصوت متقطع، ثم قالت سمية:

- دا عمره يا دكتورة ..كله مكتوب عند ربنا.
- ونعم بالله!
- إبراهيم قاللك على ...
- على المكافأة؟ أيوة
- هيخلص أوراقها، وإن شاء الله هتكون في حسابك أول الشهر.
- يا ريتهم ياخدوها ويرجعلي هو!
- دا رزق الولاد يا حبيبتي.. ربنا يصبر قلبك يا رب.
- يا رب .. يا رب!

ترددت سمية قبل أن تقول :

- الدكتور سايبلك رسالة متسجلة بصوته هنا على الموبايل.. الدكتور اللي كان معاه في العناية قاللنا.

اتسعت عينا شيماء وأسرعت تفتح الموبايل. لم ينس أحمد شيئا وألغى كلمة المرور قبل أن يسلم الهاتف لزميله في العناية المركزة.

استأذنت سمية للمغادرة، ولكن شيماء قالت:

- بالله عليكي خليكي معايا .. أنا خايفة يجرالي حاجة!

هتفت سمية:

- بعد الشر عليكي ربنا يحفظك لأولادك يا رب!

أخذت شيماء تبحث في ملفات الهاتف حتى وجدت الملف المطلوب. سمعت صوته يخرج من أعماق رئتين من حجر كانتا تقتلانه حينها، وصافرات أجهزة المراقبة الحيوية الرتيبة تعبر الحديث من وقت لآخر. بين كل كلمة وأختها زمنٌ مرهق متألم، أو سعلة كصبارة شائكة:

" شيماء ..حبيبتي .. أنا عاوزك قوية زي ما عودتيني. مش ..عاوزك تزعلي عليا.. انا فرحان اني... هقابل ربنا يمكن ... ابقى شهيد... وربنا يغفر لي. كلنا في الآخر... هنموت مش فارقة

خلي بالك من نفسك ومن الولاد.. حفظيهم القرآن ...أنا سايبكم ... أمانة عند ربي... ومتأكد إنه... مش هيخذلني

أنا هطلب ... بس ...تسدي الديون... اللي عليا .. أنا عارف الحمل هيبقى تقيل... عليكي ...إن شاء الله ...ربنا يعينك.

أنا بحبك يا شيماء .. بحبك قوي.. وبدعي ربنا تكوني زوجتي في الجنة .. هناك مفيش لا مرض .. ولا فراق"

**.

سمية وصالح يثبتان أقدام أسرتهما في الزقازيق. يتجاوزان العمر الذي تركاه خلفهما ويبدآن من جديد بسماحة نفس تامة، ورضاً يتضاعف كلما اتتهم أنباء القيود التي تزداد على المقيمين بالكويت. الصغار يتأقلمون بسرعة. لا يكفون عن الشكوى نعم

..ومنذ متى يكف الأطفال عن الشكوى؟! ولكنهم يلعبون مع جيرانهم ويلتقون أقاربهم، يسافرون إلى قرية بني قريش يستمتعون بعز " دام العز"، ودفء العائلة المزدحمة وصخب أبناء العمومة. يسير صالح في مشروعه بخطى ثابتة، وبدأ الطلاب يبحثون عن قناته على يوتيوب ويوصون بعضهم بعضاً بها. أما سمية فقد عادت طفلة زوجها الأثيرة، تطهو له وحده، تستمتع بضجة الأبناء وصخب طلاب زوجها أيضاً.

**

"إيه دا يا أستاذ ابراهيم؟!"

قالتها شيماء بدهشة، وهي جالسة في بيت صالح وسمية، وأمامها إبراهيم. سمية وزوجها أصبحا كجزء من عائلتها. اتصل بهما إبراهيم يرغب في يلتقي شيماء لأمر هام. ولم يكد يراها حتى وضع أمامها مبلغاً كبيراً من المال أخرجه من حقيبته. قال إبراهيم:

- دي فلوس الدكتور أحمد يا دكتورة.
- ما احنا خدنا المكافأة بتاعت وزارة الصحة من بدري!
- لا يا دكتورة .. دي فلوس مكتب السفريات.. أو جزء منهابمعنى أصح لأني معرفتش أجيب باقي الفلوس.

تأملت سمية المبلغ الموضوع على الطاولة أمامها، ثم رفعت عينيها إليه وقالت:

- كان ليك نسبة في المبلغ؟

هز إبراهيم رأسه إيجابا دون كلمة زائدة. كيف تمكن من فعلها؟ كيف استقطع من لحمه عشرة آلاف جنيه ليردها لأرملة

الطبيب الشاب الذي ليس موجوداً ليطلب حقه.. ثمن تاشيرة وفاته كما سماها.

سألته شيماء بهدوء:

- ليه؟!
- مش قادر آخدهم يا دكتورة .. مش قادر حقيقي!

كان ولداها يلعبان بالجوار، فنظر إليهما بعطف وقد أطلت منهما ملامح أبيهما بوضوح. لم يتحمل المزيد وغادرهم على الفور.

حصلت شيماء على مبلغ يقرب من نصف المليون جنيه من الحكومة الكويتية كمكافأة لشهيد الواجب د. أحمد عبد الله. تتعجب من الأقدار.. كان سابقاً في علم الله أن زوجها سيموت في العشرين من أغسطس ٢٠٢٠، و بدلا من أن يموت حتف أنفه في مصر، مات في الكويت مخلفاً ثروة لولديه لم يكن هو شخصياً يحلم بها. ثم ها هي عشرة آلاف جنيه تنضم لثروتهم دونما سعي.

**

جعبة المآسي مثقوبة، يخف حملها مع مضي الوقت وطول المسير. نتعجب من أنفسنا كيف فرطنا فيما سقط منا سهواً، ثم نحمد الله على نعمة السهو ونستمر.

نكبر في السن و نتعلم أن التعلق مهلكٌ ، و أن التعامل مع الدنيا كالمغتربين أكثر أماناً للقلوب. التعامل على أن هذا البيت ليس بيتك و أن هذا المال ليس في الحقيقة مالك ، و أنك مغادر أهلك لا محالة. و أن ثوب السفر لابد أن يكون جاهزاً في خزانتك، مطوياً بعناية ، يذكرك بأنك سوف ترحل في أية لحظة.

أحمد .. يا لحظ أحمد!! وصل مبكراً و حط رحاله . يلتقط أنفاسه و الناس وراءه مازالوا يلهثون. شيماء وراءه مازالت تتمنى أن تصل و تستريح.

الناس تمر على صورته كل عام في ذكراه على مواقع التواصل. يتمتمون بالدعوات ثم ينتقلون بعده إلى جدهم ومزاحهم. وهي.. تمر على صورته فتتوقف للأبد. تحدثه بألا تقلق.. مازلت هنا أذكرك! ما زلت هنا كيومي الأول.. ربما لا أبكي، ولكني على العهد حتى ألقاك.

(تمت بحمد الله)